دكتــور
طه الدسوقى حبيشى
الدمياطى
أستاذ بجامعة الأزهر

اللعاب الأخير

فى

مجال انكار سنة البشير النذير

الطبعة الثانية
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام علي عباده الذين اصطفي والصلاة علـــي خاتمـــهم محمد صلي الله عليه وسلم الذي أمرنا بإتباعه وتقديره ، وجعل الله إتباعـــه دليلاً علي محبتنا لمن أرسله .

ورضي الله تعالي عن آل النبي وأصحابه وعن ذريته وتابعيه ومن تبعـــهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فلقد شاء الله أن نعود من جديد إلي موضوع السنة بين معتنقيها ومنكريها لنقول كلمة ربما تكون أوسع انتشاراً لتصل إلى أيدي كثير مـــن المسلمين علي اتساع رقعة العالم الإسلامي .

وإنا لمغتبطون غاية الاغتباط حين نعود إلى موضوع شغلنا به مـــن قبـــل ومازلنا مشغولين به إلى الآن .

ذلك أن الشرذمة من الناس الذين الذين أريد لهم أن يتخذوا من الســـنة موقفاً معادياً حين أعلنوا عن أنفسهم في هذا العصر ، وحين أبـــانوا عـــن مواقفهم في هذا الزمان قد ظهروا أمامنا وحالهم علي غير الحال التي كان عليها أسلافهم من قبل ، إذ إن أسلافهم ما كانوا يستطيعون أن يعلنوا بيـــن الأمة الإسلامية أنهم أعداء للنبي علي هذا النحو الذي أعلنـــه وظـــهر بـــه منكرو السنة في هذا الزمان .

إن قصارى ما وصل إليه أسلاف القوم حين أعلنوا عن مواقفهم أنـــهم قالوا : إن السنة أمر من الأمور التي لا ثقة فيها من الناحيـــة العلميـــة ، و حين أرادوا أن يبرروا مدعاهم هذا قالوا كلاماً كثيراً لا يكاد يقنع أحداً ، بل هو لا يكاد أن يصل بآحاد الناس إلى أن يعيروه ســـمعهم ، أو أن يمنحـــوه شيئاً من اهتمامهم .

وذهب القوم من الأسلاف إلى ماذهبوا إليه من إبقاء دعـــاواهم عاريـــة عن الدليل ، وناقشهم العلماء يومها الحساب، وكتب الفريقين متاحـــة لمـــن

أراد أن يقرأ أموراً قد أصبحت الآن في سجلات التاريخ يستصحبها من يريد أن يستصحبها ويتخفف منها من يريد أن يحسبها من سقط المتاع.

أما منكرو السنة في هذا الزمان فقد ارتضوا لأنفسهم أسلوب الغوغاء من البشر ، واختاروا أن تعرض قضاياهم بغير منـــهج، وتشبثـوا غايــة التشبث بالصوت العالي وقرع الطبول ، وادعوا أموراً كثيرة بيــن العامــة فحسبهم الجاهلون أغنياء في العلم أصلاء في المعرفة ، فتشبث بهم البعض رغبة في مصلحة أو اتشاح بجهل ، ودهش من مواقفهم آخرون ، فوقفـــوا في مواجهتهم فاغرى الأفواه فترة ، ثم ارتدت رءوسهم إلى الأرض حتـــى التقت أذقانهم بصدورهم من أثر الدوار، هذا الدوار الذي أخـــذ برءوســـهم بتأثير كلام خطير لا صلة له بالعلم ، ولا ارتباط له بالأخلاق .

والقضايا التي يدعيها الآن منكرو السنة في هذا الزمان تدور حول هذه المحاور.

المحور الأول :-

أن السنة من عمل الشيطان ، وأنها مكذوبة ، وأنها لا يجوز لـــــها أن تحتل مكاناً أي مكان في شريعتنا الغراء ، ولا يجوز لنا ولا لغيرنـــا مـــن المسلمين أن يتعلقوا بها ، إذ هي لا تعدو أن تكـــون ابنـــاً غـــير شرعـــي للإسلام، فإذا أراد المسلمون لأنفسهم السلامة ، وجب عليهم أن ينكروا هذا الابن غير الشرعي ، وأن يعلنوا بين الناس أن الشريعة ما أنجبت هذا الابن ولا يصح أن ينسب إليها .

ولم يستطع منكرو السنة أن يجدوا دليلاً علمياً واحداً يؤيدون به هـــذه الفرية ، فلجأوا إلى الشغب وإلى القتال بالأيدي حيناً ، كمـــا لجـــأوا إلـــى الإغراء بما يتاح من أساليب الإغراء حيناً آخر .

فحين طالبهم العلماء بالدليل لجأوا إلي ما ينبغي أن يلجأوا إليه مـــن الطريقة التي عابها القرآن علي اليهود في عصر المبعث و ما قبلـــه ومـــا بعده .

وهذه الطريقة التي عابها القرآن علي اليهود هي طريقة مزدوجة،إذ هم كانوا يكتمون الحق حيناً وكانوا يلبسون الحق بالباطل حيناً آخر وهم يعلمون .

إنهم كانوا يكتمون الحق حين يتأكدون أنهم يخاطبون أناساً غير مهتمين بالبحث عن الحقيقة حيث صرفتهم عنها صوارف الحياة ، وانشغلوا بأمورهم عن مزاولة أمور تتصل بالبحث عن هذه الحقيقة تحصيلاً و تحليلاً فإذا وجد اليهود قوماً من هذا النوع كتموا عنهم الحق وألقوا إليهم بالباطل فصادف الباطل قلباً خالياً فتمكن فيه .

و أنهم كانوا يلبسون الحق بالباطل حين يتأكدون أن من يحدثونهم من البشر لهم جزء من الاهتمام بالحقيقة والبحث عنها ، أو هم يتمتعون بشيء من العقل والتفكير يجعلهم ينظرون فيما يلقي إليهم نظرة تأمل وفحص فيقدمون إليهم الحق ممزوجاً بالباطل حتي يكسبوا ودهم بما يلقون إليهم من بعض الحقيقة ، وحتى يشوشوا علي أفكارهم ليصرفوهم بالكلية عن أن يحققوا أغراضهم التى لو تركوا هم والحقيقة الكاملة لاستقلت الحقيقة بقيادتهم إليها .

عاب القرآن الكريم علي اليهود أول الأمر هذا المسلك ، وظل هذا المسلك نفسه معيباً إلى اليوم ، وإلى ما بعد اليوم إلى أن تقوم الساعة " ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون " [1] ومنكرو السنة في هذا الزمان حين رأوا أن قضيتهم خاسرة لجئوا إلى هذا المنهج المعيب ، واتبعوا هذا الأسلوب الشائه .

فكان بحمد الله ما كان من وقوف الأمة علي طريقتهم ، ومن تحقق العامة والخاصة من أغراضهم . فما أثمر هذا المنهج الشائه فيهم شيئاً مما يقصدون إليه ، بل إن الأمة قد تحققت من مواقفهم فعزلوهم واجتنبوهم

---

[1] البقرة : ٤٢ .

فأصبحوا ظاهرين أمام مصطنعيهم بحجمهم الحقيقي غير المؤثر في الأمة وغير المعوق كما يدعون .

وكان علي القوم أن يديروا الحديث بين العامة علي محورهم الثاني.

ومحورهم الثاني يقوم علي إنكار جزء من السنة واعتماد جزء آخر منها إلى حين .

وعندي بخط بعضهم وبأصوات البعض الآخر ما يؤكد هذا الاتجاه ويشرح تعلقهم به ورغبتهم في حمل الناس عليه .

والذي يريده القوم هنا هو التخفف من السنة القولية كلها ، واعتماد السنة الفعلية علي مضض إلى حين ، فقسموا السنة إلي قسمين :

أحدهما : السنة القولية ويسمونها بالحديث .

وثانيهما : السنة الفعلية وهي التي يسمونها بالسنة ، ولا يجيزون إطلاق اسم السنة علي القسم الأول ولا علي شئ منه .

والقوم حين اصطنعوا هذا المحور واعتنقوه ظنوا أن وجههم هذه المرة سيظهر أمام الأمة أكثر بياضا ونصاعة لأن الناس لن يتمكنوا والحالة هذه أن يسألوهم عن شئ مما كان يضعهم في حرج حين كانوا ينكرون السنة بالكلية .

فأنت مثلا إذا سألتهم هذه المرة عن الصلاة وعدد ركعاتها و مواقيتها من أين عرفوها . قالوا أخذناها من السنة الفعلية ، وإذا سألتهم عن الصيام بدءا أو إنتهاء أو عن الحج-أعمالا و ممارسة أو عن غير ذلك مما يشبهه قالوا في كل هذا إننا قد أخذناه من السنة الفعلية ، ونحن نعتمدها ولا نعتمد السنة القولية بحال .

ولو أن هؤلاء القوم سئلوا عن الدافع الحقيقي وراء تمييزهم بين السنة القولية والسنة الفعلية لقالوا كلاما غريبا.

وأنا أحب أن أنبهك هنا إلى أن ما أذكره الآن بين يديك ليس افتراضا نفترضه في العقل يقبله الواقع أو يأباه ، وإنما هو واقع قد شهده الناس بأعينهم وسمعوه بآذانهم فعجب له من عجب وسخر منه من سخر .

أن القوم قد سئلوا بالفعل عن الدافع الحقيقي وراء التفرقة بين السنة القولية والسنة الفعلية بحيث نقبل بعضها ونرفض البعض الآخر ، فأجابوا بأن الله عز وجل حين بعث النبي محمداً ، بعثه بشخصيتين مزدوجتين يمكن للإنسان أن يلمحهما في القرآن الكريم ، وأن يتبينهما في التاريخ .

الشخصية الأولي :

أطلق عليها القرآن لقب الرسول . والرسول بهذه الشخصية لا يخطئ ولا يجاوز الحق ، ولا يكون عاصياً ، ولا يكون بعيداً عن طاعة ربه ، بل إنه بهذه الشخصية يدور هواه مع الشرع حيث دار وإنه بهذه الشخصية تتم له العصمة ، ويكتمل له التأبي علي كل نقيصه ، وهو بهذه الشخصية يحرم علي النار ويكون مثواه الجنة ، بل أنه بهذه الشخصية يكون في أعلي درجات الجنة وفي مكانة متميزة منها يرمقه غيره ، ويتطلع إليه سواه ولا يشاركه في هذه المرتبة إلا إخوانه من النبيين ومن ترقي في إتباع المنهج وأخلص إلى شرع الله من الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، وهو بهذه الشخصية في الدنيا يكون بين الناس قدوة حيث يرغب الناس في الاقتداء ، ويكون بين الناس قد تربع القمة وحده حيث ينظر الناس إلى القمة وهم يصعدون من السفح الهابط بقصد بلوغها والوصول إليها .

إنه بهذه الشخصية علي الجملة يكون موضعاً لمحبة الله ورضاه .

وهو بهذه الشخصية كذلك يكون محلاً لتقدير الناس والإقتداء به بعد أن أصبح محلاً لثقتهم فيه والأخذ عنه .

ولمحمد صلي الله عليه وسلم عند القوم شخصية أخرى يطلق عليها القرآن اسم النبي ، وهو بهذه الشخصية خطاء ، غير محل للثقة ، لا يجوز أن نأخذ عنه ، وقد ينتهي في النهاية بهذه الشخصية إلى أن يكون خالداً في النار مع المذنبين ومع الخطائين .

ونحن هنا نستنكف أن نذكر ما ذكروه وسطروه وأذاعوه بين الناس متعلقاً بهذه الشخصية الثانية .

مع أننا نعلم علم اليقين أن حاكي الإثم ليس بآثم ، وحاكي الكفــــر ليس بكافر إلا أننا نري في نفس الوقت أن حكاية الإثم منســـوباً إلـــى مــا ذكروه علي وجه الاتهام وحكاية احتمال الكفر منسوباً إلى ما ذكروه علـــى وجه اتهام النبي بإمكان وقوعه منه أمر يخدش الشعور الديني عند القـــائل والسامع ، أو عند الكاتب والقارئ ، والشعور الديني أو العاطفة الدينية من أنبل ما يملك الإنسان من مشاعر إن لم تكن أنبلها علي الإطلاق .

وما ذكره القوم منسوباً إلى النبي فيه جرأة عجيبة علي الواقع ، وفيـــه تجن صارخ علي العلاقة بين الله وبين نبيه صلي الله عليه وسلم .

وأنت يكفيك مني أن أضع بين يديك أموراً للتأمل ، ولو فـــي أضيـــق الحدود .

ومن بين هذه الأمور أن القوم حين جعلوا للنبي شخصيتين وهو كائن واحد قد اتسعت عقولهم أن يجعلوا من النبي مرة موضعاً للقدوة ، وأخرى محلاً للإعراض والازورار.

و القوم قد اتسعت عقولهم أن يجعلوا من النبي محلاً للثقة نأخذ عنـــه ولا نرد قوله مرة ، ومرة أخرى جعلوه محلاً للشك فيه ، وجـــردوه عـــن العدالة وحاشاه بحيث أرادوا من الناس أن ينصرفوا عن قوله ولا ينصتـــوا لحديثه .

و القوم قد اتسعت عقولهم إلى أن يروا من محمد صلي الله عليه وسلم يوم القيامة ما لا يرونه في غيره ، فهو في نفس الوقت الذي يكـــون فيـــه مخلداً في النار يكون في مكانة متميزة من الجنة يرمقها الناس ويطمع فيها كل مؤمن مخلص .

أن القوم قد اتسعت عقولهم إلى هذا وإلى كثير غيره .

أما كاتب هذه الصفحات فلا يتسع عقله للجمع بين النقيضين في وقت واحد بعد اكتمال شروط الناقض فيهما ، فكاتب هذه الصفحات مثلاً لا يري اجتماع الحركة والسكون علي محل واحد ، ولا يري اجتمـــاع الوجـــود و العدم علي شئ واحد وقت واحد ، ولا يرى اجتماع البياض والسواد فـــي

وقت واحد علي محل واحد ، ولا يرى أن يشغل إنسان بعينه مكـــانين متباينين كالجنه والنار في وقت واحد ، كما أن كاتب هـــذه الصفحــات لا يتسع عقله لما مضي ، فإنه في نفس الوقت لا يتسع عقله كي يقبل حكمين متباينين في وقت واحد علي شخص واحد ، كأن نقول إنه قدوة وغير قدوة في نفس الوقت ، أو أنه ثقة وليس بثقة في نفس الوقت أو أنه قد اســتكمل شروط العدالة ، وأنه ليس بعدل في نفس الوقت إلى آخر ما يقـــال ، ومــا يقال كثير .

و إذا كنت قد أبنت عن شخصيتي وما تحتمله من الأحكام فإني أتـــرك قارئي أمام ما وضعت بين يديه للتأمل لينتهي به رأيه إلى ما يوافق الطبــع منه .

ولولا أني رأيت كلامهم مكتوباً لقلت أن كلامهم الذي نسب إليهم قـــد نسب إليهم علي وجه المبالغة ، أو أنهم في أقل القليل قد دفعهم إلى القـــول بمثل هذا الكلام بعض المواقف الحادة في النقاش أو الجدال التى وضعتـــهم في زاوية من الحديث لم يتمكنوا من الخروج منها إلا بمثل ما صرحوا به رغبة في الحفاظ على موقفهم الاجتماعي ، ثم هم قد عادوا بعـــده تـــائبين نادمين ويغفر الله لمن يشاء .

ذكرنا بين يديك محورين أو اتجاهين من المحاور أو الاتجاهات التـــى حاور على أساسها منكرو السنة وقسموا أنفسهم على أساسها إلى كتائب في معسكر عام .

ولست أريد أن أستطرد معك في بقية محاورهم فقد سبق لنا أن تقصيناهـــا في نشرات لنا سبقت هذه النشرة .

والقوم علي أي حال قد اتخذوا من بعض الشخصيات العامـــة ســتاراً يستترون به ، كما أنهم حاولوا أن يسجلوا لأنفسهم جمعيات تضفي عليـــهم الصفة الرسمية تحت مظلة قانون دولة مسلمة.

وأنا وأن كنت أتوجه باللوم ألي تلك الشخصيات العامة التي اتخذ القوم منها ستاراً ، فأنا لا ألوم بعض الجهات الرســـمية التـــى أصـــدرت لـــهم

التراخيص ، وقننت لهم المواقف لأنه من السهل جدا أن يكيف المرء حين يريد التزييف على الأمة نفسه مع مظلة الأمان في بلد مسلم ، وهذا ما فعله القوم الأمر الذي يحملنا علي القول بأننا لا نلوم الجهة الرسمية التـــي منحتهم بعض التراخيص ، ولكن مع أنني أقول إنني لا ألوم هــذه الجهــة أقول في نفس الوقت. إننا نلفت نظرها إلى ما حدث ، وإنا لعلي يقين أن هذه الجهة نفسها لن تقبل أن تمنح القوم مظلة أمان رسمية تعمـــل تحتـــها وتستظل بظلها .

ونحن علي مضض نوافق مضطرين أن نقول : إننا لا نحجـر علـي إنسان في رأي ارتآه ولعله مجتهد فيه ، ولكننا بكل الثقة في أمتنا نقـــول : أنه ليس من حق أحد كائنا من كان أن يعبث بعقول الناس ، ولا أن يجرح مشاعرهم الدينية ، ولا أن يحملهم بالتضليل إلى ما يريد أو إلى ما يراد له.

ولقد سبق منا القول أن الأمة قد تواضعت علي أن السنة التـــي هـــي أقوال النبي وأفعاله وتقريراته وصفاته صلي الله عليه وسلم قد وضعت في مكانها من التشريع ، واحتلت المصدر الثاني منه .

أما القوم فقد رسموا طريقهم علي مراحل وخطوات منضبطة .

أولها : – إنكار السنة القولية واعتماد السنة الفعلية .

ثانيها :– إنكار سنة النبي بالكلية واعتبارها من عمل الشيطان .

ثالثها :– إنكار القرآن المدني كله .

رابعها:– خلع عروة الدين من الرقاب بالكلية .

وما ذكرناه لك من أهدافهم قد تحدث القوم بالفعل منها حـول الـهدف الأول والثاني والثالث .

أما الهدف الرابع فقد حاولوه في أواخر الثمانينات من هـــذا القـرن وفشلوا في المحاولة ، غير أنهم قد بدءوا في هذا الزمان بكتابة مقالات في بعض المجلات يجسون بها نبض الأمة التي هي علي وعيها بمشيئـــة الله

ولقد رأينا هذه المقالات ،و اطلعنا علي بعض الردود عليها ، ففطنا بفضل الله إلى الهدف المطوي والذي يبدو من بين السطور لمن يريـد أن يتـأمل

وأعجبنا في نفس الوقت بالمقالات التي كتبت للرد و التنفيذ ، غير أن هذه المقالات التي أعجبنا بها ركزت علي الموضوع و تفنيده ، ولم تركـــز علي الهدف الكامن من البادي خلف إثارته ، والأمة علي كل حـــال لـــهم بالمرصاد .

والقوم منذ رأوا أن يرفعوا عقيرتهم بإنكار السنة في هذا الزمان وأنـــا آخذ علي عاتقي أن أكون جندياً في هذا الميـــدان أرد عـــن الديـــن بقـــدر المستطاع ، وأقف إلي جوار السنة التي أومن بها بمقدار ما يمنحني الله من التوفيق ، فأصدرت أول الأمر نشرة توشك أن تكون صادرةً عن مرصـــد يرصد حركات القوم ويؤرخ لها ، ثم أصدرت نشرة أخرى بعد أن تجمـــع لدي بعض المعلومات عن القوم كنت فيها أميل إلى التحليل وقراءة ما بين السطور ووضعه بين يدي القارئ مرئياً للعيان حتي تكـــون الســـنة فـــي مواجهة أعدائها ، ثم أصدرت النشرة الثالثة أو الجزء الثالث تتبعت فيها كل مالدي القوم من أحاديث شككوا في نسبتها إلى النبي ، وبينت زيف أسلوبهم وعوار منهجهم في كل حديث افتروا علي النبي القول فيه ، ثم قذفت به بين يدي القراء فتلقفوه علي نحو ما تلقفوه به من استحسان ورضي ، ثم رأيت في نشرة رابعةٍ أن أبين عن إمام مذهبهم واكشف عـــن شخصيتـــه وعـــن شخصيةِ نائبة الذي ما يزال الآن حياً يعبث بعقول الغريبن ، وأمام الطائفة وإن كان مصري الجنسية في أول نشأته إلا أنه قد تلقفته يد اليـــهود وراء المحيطات تتخذ منه صنيعه لهم بعد أن فر من بلدة تحـــت جنـــح الظـــلام فاستعملوه فيما يريدون فترة من الزمن ثم ألقوا به أخيراً بعد أن قتلوه فـــي مرحاض مسجدٍ مهجورٍ في مكانٍ نائي وبلدٍ بعيدٍ .

أما هذه النشرة التي بين يديك فإنني رأيت من الأفضل لي ولك وللسنة أن نضع العقل أمام مسئولياته ، وذلك من خلال الاقـــتراب مـــن الواقـــع والابتعاد عن الافتراضات العقلية ، إذ إن الاقتراب من الواقع هـــو أقـــرب الطرق إلي الوصول إلى كل حكمٍ صحيحٍ .

لقد رأيت لي ولك أن نفترض جدلا من القول أننا قـــد وافقنـــاهم علي تنحية السنة عن مجال التشريع وبعد هذا نحن نحب أن نطالبهم بـــأن يضعوا لنا بدائل مقبولة و منطقية تسد الثغرة وتملأ الفراغ الذي ســـتتركه السنة في مجال التشريع .

وبعد هذا الافتراض وبعد هذه المطالبة للقوم أن يقفوا أمام مسئولياتهم فنحن قد طالعنا ما كتبوه وسطروه فوجدناه لا يخرج عن هذه الاحتمالات الثلاثة .

الأول :- أنهم قد اقترحوا أ، نعتمد سنة سيدنا إبراهيم بدلا من سنة النبي صلي الله عليه وسلم .

الثاني :- أنهم قد رأوا أن العرف فيه كفاية وغناء عن السنة بل وعـــن القرآن نفسه .

الثالث :- أنهم قد رأوا تغيير الشريعة كلها علي أساس توهموه وأحلـــوا قومهم بعد أن حاولوا أن يلزموهم به دار البوار إن هم قد استجابوا لهم فيما توهموه وزعموا أن هذا الشئ الذي توهموه موجود بتمامه في القرآن.

ولقد رأينا أن نستعرض معك في هذه النشرة مع ضيق مســاحتها مـــا يمكن أن تسمح لنا به النشرة من عرض لهذه الاحتمالات الثلاثـــة . ومـــن مناقشة لها حتي تقف السنة مع أعدائها وجها لوجه و حتـــى نوقفـــك مـــع الحقيقة وجها لوجه آملين أن نكون بيض الوجوه حين نكون مع النبي يـــوم القيامة وجها لوجه " يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذيـــن اســـودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذيـــن ابيضت وجوههم ففي رحمة الله فيها خالدون "[1] معني السنة كما يفهمـــها هؤلاء الذين اتخذوا منها موقفا بإرادة الإصلاح ، أو بإرادة الإفســـاد ، أن نتحدث عن الآثار التي تترتب علي إنكار السنة ، وكيف تعامل أصحاب هذا الموقف معها .

---

[1] آل عمران ١٠٦ ، ١٠٧

تحديد المسار

كان من الطبيعي بعد أن تحدثنا عن معني السنة كما نفهمها ، وعــــن معني السنة كما يفهمها هؤلاء الذين اتخذوا منها موقفاً بإرادة الإصلاح ، أو بإرادة الإفساد ، أن نتحدث عن الآثار التي تترتب علي إنكار السنة ، وكيف تعامل أصحاب هذا الموقف معها .

ونحن حين نتأمل قضية إنكار السنة ، لا يكون من غرضنا البحث عن الوسائل والغايات ، فتلك مسألة لها رجالها المختصون بها ، وهـــم أولئـــك النفر ، الذين يتتبعون خيوط الجريمة حتي توصلهم هذه الخيوط إلى تكييفٍ تظهر به مكتملة الأركان ، متكاملة العناصر وهي مهمة لا أجيدهـــا ، ولا يجيدها مثلي ، ولذلك أجد من الخطأ أن أجعل البواعث والغايات موضوعاً لدراستي إلا بقدر ما يحتاج إليه الفكر ، أو يوصلنا إليه النظر الصحيح .

أما الأمر الذي لا يجوز التفريط فيه ، والذي هو موضوع بحثنـــا ولا شك ، هو تلك الآثار الملموسة والمحسوسة التي تترتب علي إنكار السنة .

وأنت لا يخفي عليك أن السنة بالنسبة للشريعة : ليست من سقط المتاع ، ولا هي بالشئ الهامشي الذي يمكن أن نتجنبه ، ولا هي بـــالوليد الـــذي ألحق بالإسلام زوراً من غير أن يكون له سند شرعي صحيح .

والإسلام كأي دين سماوي يعالج قضاياه من خـــلال دوائـــر متعـــددة فهناك مثلاً دائرة الإيمان ، وفيها : أن يؤمن المرء بالله وملائكتـــه وكتبـــه ورسله واليوم الآخر ، وأن يؤمن بالقدر خيره وشره من الله .

وهذه الدائرة التي ذكرنا أمثلة منها : تقوم أساساً علي صحة الوعـــي بالتوحيد ، وأن يتمكن المرء فكرياً ووجدانياً من أن يقدر اله حق قدره ، ثم يتبع الوعي بالتوحيد : كل مسائل العقيدة في النبوات والســـمعيات ، ومـــن أركان العقيدة : التصور الصحيح للنبوة والأنبياء وهي مسألة مهمة يجـــب ألا يغفلها كل من يريد أن ينضوي تحت شريعة الإسلام .

ومفهوم النبوة في الإسلام يكاد يكون من أبجديات هذا الدين .

وعلاقتنا بالنبي خاصة وإخوانه النبيين علي وجه العموم علاقـــة[14] تحتمها الضرورة الأخلاقية والتربوية ، فإذا ما انفصمت عري العلاقة بيننا وبين النبي ، صعب علينا صعوبة تكاد تكون مطلقة أن تكون لنا منظومـــة تربوية .

وهناك دائرة أخرى غير دائرة العقائد ، هي دائرة التشريع أو التكيف سواء أكان هذا التكليف متصلا بعلاقة الإنسان بربة خاصـــة ، أو متصـــلا بعلاقة الإنسان بربه من خلال تشريع يضبط سلوك الأفراد الاجتماعي في مجالات الاجتماع المختلفة .

وهذه الدائرة تحتاج إلى قواعد نظرية عامة ، وهي تلك التـــي تمثـل الإطار المذهبي العام الذي يحدد شخصية وهوية الشريعة الإسلامية في هذه الدائرة وفي غيرها .

غير أن الإطار المذهبي وحده لا يكون كافيا ما لم تكن هنـــاك أشيـــاء تشبه القوانين الجزئية ، والتي تتصل بالواقع اتصالا مباشرا .

ويبدو لي أن هذا التحديد ، وذلك التخطيط العام ، من الأمور التـــي لا يتنازع فيها شخصان .

وإذا كان من الممكن أن الإطار المذهبـــي يتـــأتي وضعـــه نظريـــا ، وتحديده فكريا ، فإن هذه القوانين الجزئية المتصلة بالواقع اتصالا مبـــاشرا تحتاج إلى إنسان فاهم للمنهج ، مستوعب للإطار العام واعيا بـــهما غايـــة الوعي ، كي يستنبط هذه القوانين من الواقع إن كان المذهـــب وضعيـــا أو بشريا ، كما أنه يحتاج إلي أن يكون له من المميزات ما يمكنه أن يســـتلهم هذه القوانين من جهة عليا عن طريق الوحي إن كان هذا المذهـــب دينيـــا موحي به من الله.

وبناء علي هذه الكلمات الموجزات نستطيع معا أن نتصور دور السنة في هذه الدائرة .

إن صاحب السنة عليه أن يتلقي هذه القوانين الجزئية وحيا يوحي من الله عز وجل ، ثم هو مكلف بعد تبليغها أن يربط بينها وبين الواقع ربطـــا

قويا ، يمكن الأجيال القادمة من تطبيق تلك القوانين علـــي الحـــالات المماثلة في الأجيال القادمة ، كما أنه يجعل الناس يتمكنون من أن يقيســـوا عليها الأشباه والنظائر ، مع توفر شروط القياس التي تجعل تطبيقه مقبولا .

وهذا الذي ذكرت لك يعد دورا خطيرا ، لا يمكن الاستهانة بــــه ، أو التقليل من شأنه ، وإلا بقيت الشريعة إطارا نظريا عاما تحتـــاج إلـــي مـــا يربطها بالواقع ، ويقربها من المسائل الجزئية .

والنظم والقوانين والأطر العامة تبقي كلها عديمة القيمة إذا لم نتمكـــن من إسقاطها علي الواقع .

كما أن هناك دائرة الأخلاق إن صح أن نخصها هنا بحديث بعـــد أن ننتزعها من الدائرة السابقة عليها .

ودائرة الأخلاق تحتاج بالإضافة إلى ما ذكرناه من القوانين الجزئيـــة إلى شئ آخر وهو الحمل علي تنفيذها بالقدوة الحسنة ، وشـــرط صـــاحب القدوة أن يكون معصوما من الخطأ بعيدا عن الزلل ، إذ لسنا بالعقل وحده نقبل علي فعل الخيرات ، ونتجنب اقتراف المعاصي ، ومجانفة الآثام .

ولعلك تدري مدى الخطأ الذي وقع فيه سقراط اليوناني حين قال : "إن الفضيلة علم ، وإن الرذيلة جهل".

فالرجل قد تصور – واهما – أن العلم بالفضيلة يحملنا علـــي العمـــل بمقتضاها حتما ، وأن العلم بالرذيلة يحملنا علي تجنبها بالضرورة .

والرجل معذور فيما ذهب إليه ، ولكن التجارب قد أثبتت خطـــأه ، إذ ليس بالعلم وحده يكون الإنسان فاضلا ، وليس بالجـــهل وحـــده يرتكـــب الإنسان الآثام ، وإنما تأتي القدوة لتحتل مكانها في المنظومة التربويـــة ولا شك .

والإنسان محل القدوة من أعلي درجاتها :- لابد أن تتوافر فيه شروط أهمها الوعي بما يفعل ، وعدم جواز الخطأ عليه ، إذ لو كان من الخطيئين لكان اتخاذه قدوة محلا للجدل وهو أمر يخلخل الثقة فـــي محـــل القـــدوة ، ويجوز الاختلاف عليه .

وتلك مسألة تنال من قيمة الرسالة ، وتخدش فاعليتها .

ونخت هذه الدوائر بالدائرة الرابعة وهي : علاقة الإنسان بربـــه مـــن خلال القوانين التي تنظم علاقته بالكون .

والقوانين التي تنظم علاقته بالكون ليست هي القوانيـــن التـــي تحكـــم الظاهرة الطبيعية أو الحيوية ، وإنما هي مجموعة أخرى من القوانين يجب علي الإنسان أن يقف عليها ، وهو يتعامل مع الكون بنظمه وقوانينه التـــي تحكم ظواهره .

فعالم الطبيعة والكيمياء إذا كانت علاقته بالكون والحياة هـــي علاقـــة إنسان تعرف علي قوانين الكون والحياة ، لدية الحرية في استعمالها ، فإنه سيكون ضرره أكثر من نفعه وسوف يتسلط علي الكون بما أوتي من بعض العلوم ، ليخرب فيه جوانب ما كان له أن يخربها .

أما حين يلتزم بمجموعة أخري من القوانين التي وضعـــها صـــانعوه وصانع الكون جميعاً ، فإن هذا الالتزام نفسه يفرض عليه نوعاً من العلاقة تحد كثيراً من حريته ، وتضع أمامه علامات استفهام كبري حين يريـــد أن يستعمل علمه في تخريب جزء من هذا العالم الذي أتيح له أن يكتشف شيئاً من قوانينه .

من خلال هذه الدوائر الأربع التي رسمنا صورتها أمامك بشـــئ مـــن الإيجاز ، نستطيع أن نتصور أهمية السنة ، ونتصور أن دورها ليس دوراً هامشياً ، وأنها ليست من سقط المتاع ، وأنها ليست ابنـــاً غـــير شرعـــي للإسلام ، ألحق به زوراً وبهتاناً كما ادعي أجناس جولدتسيهر في بعض ما كتب من محاضرات عن تطور الشريعة الإسلامية ، وتبعه فـــي خطواتـــه وعلي دربه من يبصر الطريق ومن لا يبصره .[1]

---

[1] راجع العقيدة والشريعة ، فجر الإسلام وضحاه أحمد أمين ،أضواء علي السنة النبوية أبورية وغير ذلك.

وعلي الذين ينكرون السنة أن يملئوا الفراغ الذي تركته السنة في الشريعة الإسلامية .

يوم أن أخذوا قراراً بتنحيتها ، وليسوا بالطبع أصحاب قرار.

سولت لهم أنفسهم أن ينكروا السنة ، وأن يخدعوا البسطاء بأن هـــذا أمــر ممكن ، وادعوا أن السنة من عمل الشيطان ، وأنها اختلاق اختلقـــه مــن اختلقه ، ونسبه إلى النبي زوراً وبهتاناً .

والتزوير دائماً يكون أمراً سهلاً طالما هو في إطاره النظري فـــهناك إلي جوار الحجة العقلية : الجدل الذي لا ينتهي بأصحابه إلى نتيجة وهناك الخداع الذي ينتهي بأصحابه إلى عكس ما عليه الأمر الواقع .

ولقد شاء الله عز وجل أن تكون هناك منطقة نظرية للإنسان يمـــارس فيها جدله ومهاراته .

لكن الله سبحانه وتعالي لم يشأ أن يعطي هذه الفرصة للإنسان حيـــن يريد أن يسقط كلامه النظري علي الواقع المحسوس ، فإذا ما حدث ذلـــك الإسقاط تبين زيف المواقف الزائفة وصدق الصادق منها .

فأنا الآن أحدثك من خلال حجرة مغلقة وأقول لك :

إن باب الحجرة مغلق ، وأنت تستمع إلي وربما تكون من أنصار الذين يقولون إن الأشياء لا وجود لها في الواقع ، وإنما وجودها مجرد خيـــال لا يزيد عليه .

وأنا سأظل أجادلك وتجادلني في أن الباب مغلق أو مفتـــوح ، وربمـــا ينتهي بنا الجدال حين تقولي لي : إن الباب لا حقيقة له ، والأحكام المتصلة به نسبية ، فالباب مغلق بالنسبة لك ، وهو مفتوح بالنسبة لي ولا تناقض.

وقد ينتهي بنا الجدال علي نحو آخر حين أقول لك : لماذا نتناقش نقاشا نظرياً والباب أمامنا ؟ لماذا لا نحتكم إليه باعتباره أمراً واقعاً ؟.

وحين ينتهي النقاش عند هذا الحد لا ينفعك مع هذا الاحتكام للواقع أن تقول : إن الباب وهم ، وإن وجودك وهم ، وإن وجودي وهم ، ولا حقيقة للأشياء .

ومن هذا المثل الذي ذكرت لك : يتبين أنه من حكمة الله أنه جعل [18] مساحة الجدل النظري تضيق إلى حد التلاشي إذا احتكمنا إلى الواقع .

وبعد هذا أقول : إن منكري السنة قد أوجدوا لهم مساحة من الجـــدل عريضة ،حين قالوا : أن سنة النبي عمـــل غـــير شرعـــي ، وإنـــها مـــن ممارسات شياطين الإنس والجن والاعيبهم ، فلما طلب إليهم أن يســـقطوا كلامهم هذا علي الواقع المحسوس ارتبكوا غاية الارتباك ، وانقسموا شيعاً وأحزاباً ، يجمعهم حب إنكار السنة ، ويفرقهم أسلوب التخلص من الأزمة التي أوقعهم فيها مطالبة الناس لهم أن يسقطوا كلامهم علي الواقع من غير أن يفقدوا حماستهم المكذوبة للدين الإسلامي ، ومـــن غـــير أن يخدشـــوا منظومته التى تعارفت الأمة عليها . أوقعهم مطاردة السؤال لـــهم : كيـــف تسقطون كلامكم علي الواقع من غير أن تخدشوا منظومة الإسلام وبنـــاءه المتين ، ومن غير أن تحدثوا أرشا بينكم وبين علماء المسلمين وعامتهم ؟ وقعوا في الحيرة فتواضعوا علي أن يظهر كل واحـــد منـــهم بحـــل لـــهذا الإعضال ويعرضون الحلول في وقت واحد علي الأمة ، فإن اقتنعت الأمة بأحدها اجتمعوا عليه وخدموه ، وإن رفضت الأمة الحلول جميعاً قنعوا بهذا الوقت الضائع الذي أوقعوا خاصة الأمة فيه ، وهي نتيجة مرضية لـــهؤلاء حيث تمكنوا من صرف الأمة عن ممارسة أمورهـــا الجـــادة ، وعـــن أن تنشغل بما يجعلها في مصاف الأمم الأخرى .

والحلول التي عرضوها علي الأمة حتى يرتفعـــوا بـــها مـــن وهـــده الإعضال التي سقطوا فيها كثيرة ، فمنها :

فرية الإبراهيمية كحل يراه صاحبه مقبولاً ليحل محل السنة ، ويقـــوم بوظيفتها ، فإن قبله المسلمون وقعوا في الشرك ، وبعد فترة يمكن لمـــن يريد بالأمة غير ما يريد الله أن يشوش عليها دينها ليخلع عروته من رقابهم

وهناك حل آخر يمكن طرحه علي الأمة ، وهو : أننا نأخذ من الإسلام أطره العامة ونأخذ منه المسائل الجزئية فيما عالجه القـــرآن مـــن مســـائل جزئية ، و نملأ الباقي بما تعارفت عليه الأمة في كل زمان ومكان ، كـــل

عصر بما يناسبه ، ولا يهم بعد ذلك أن تكون الأمة قد تعارفت علـــي ما ينفعها ، أو تعارفت علي ما يضرها ، إذ القاعدة العامة عند هؤلاء : أن يحولوا الإسلام من راعي مثل إلى حامي واقع .

والشر كله في أن يتحول القانون في أمة من راعي مثل : إلى حـــامي واقع ، إذ الواقع فيه ما فيه من سفك للدماء ، هتك للأعراض ، وشذوذ في الرجال والنساء يسمونه في العصر الحاضر المثلية الجنســية ويحبــون أن يقننوا لها .

يري أصحاب هذا الحل أن العرف يعالج النقص في الشريعة ويحـــل محل السنة ، وهم يريدون أن يعرضوا ذلك علي الأمة ، فإن قبلت الأمـــة ذلك كان فيه حتفها ، وكانت قد استجابت بغير عقل إلى ما يهلكها ، ويكون مثلها الذي ضربه الله في القرآن ((كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء)) .

وهناك حل ثالث يمكن عرضه علي الأمة لعلها تستجيب له ، وهو أن نعيد ترتيب المنظومة الإسلامية من جديد علي ما نهوي ونحب مدعين أن ذلك هو منهج القرآن الكريم أخذين من الأيات ما يصلح لنا ، ونحن نغض الطرف ، ونرد البصر عن الذي لا يصلح لنا ، نبني منظومـــة جديـدة لا تصلح لتربية أفراد ، ولا تصلح لبناء أمة ، فإن قبلها الناس كان ذلــك مــا يحبون ، وإن لم يقبلوها فلا بأس ، وقت ضائع ضاع علي هذه الأمة ، كما ضاع عشرات أمثاله .

ثلاثة حلول ذكرتها أمامك ، ارتأها أصحابها : نافعة فيما يقصدون إليه لا تخلو من فائدة .

وليست هذه الحلول الثلاثة هي كل ما في جعبة هؤلاء ، ولكنهم حيــن اصطدموا بالواقع دارت رءوسهم بالخيالات الكاذبة التي هيأها لـــهم أثــر الصدمة بالواقع ، وارتجاج المخ العنيف ..

وأنا أستأذنك أن أعرض عليك هذه الحلول الثلاثة كل واحد منها في فقرة مستقلة ضمن هذه الفترة لتلهو بها إن أردت ، ولتتأملها أن شئـــت ولتعرك أذن أصحابها علي حصاة إن استطعت .

أعرض عليك هذه الحلول ، وأنت بالخيار : تختار الوجه الذي يروق لك ، فإن شئت لاهيا، وإن شئت متأملا ، وإن شئت أخذا بأذن أصحابه .

فرية الإبراهيمية

قلنا من قبل إن هذه الأشياء وتلك الحلول قد دخلوا بها لحـــل مشكلـــة تفاصيل الصلاة والصوم و الحج والزكاة والبيع والشراء والزواج والنفقـــة والسطعومات والمشروبات والأقضية والشهادات ...... وغير ذلك مما هو عمق الشريعة وحقيقتها ، وليست المشكلة أمام هؤلاء هي أصل التشريـــع فهذا موجود في القرآن الكريم .

وأنت ينبغي أن تراعي هذا بعناية وأنت تستعرض هذه الحلول التـــي يظهر لي أنها جميعا حلول كوارثية .

تستطيع أنت أن تتأمل ما ذكرت لك وأنا أستعرض أمامك هذه الحلول لأري انطباعك حين تسمعها .

ومن أوائلها هذه الفرية التي تسمي بالإبراهيمية ، والإبراهيميـــة كمـــا يصورها هؤلاء هي في إجمالها المجمل أن الله عز وجل – كما يقولون – قد حصر وظيفة النبي صلي الله عليه وسلم في تبليغ القرآن ((إن عليك إلا البلاغ)) وهو حين يبلغ القرآن تنتهي مهمته ، وليس له بالأمة بعـــد ذلـــك علاقة من قريب أو من بعيد .

والأمة تتلقي القرآن من النبي بعد أن تلقاه النبي من ربه ، وأخرجـــه جبريل من قلبه إلي لسانه .

والقصة كما يروونها أن الله حين أراد أن ينزل القرآن إلى الأمة أنزله أولا علي قلب النبي كاملا دون أن يعلم النبي شيئا .

(ولك أن تعجب)

ثم أتي جبريل علي حسب الحوادث يستخرج القرآن من قلب النبي إلى لسان النبي

(ولك أن تأسف علي عقول كهذه)

وبعد أن يخرج القرآن من قلب النبي علي لسان النبي بواسطة جبريل ، يكون النبي قد بلغ القرآن للأمة وعليها أن تسمع للقرآن و تنصت إليـــه .

ويقولون : أمنا وصدقنا ، وعند هذا الحد ينتهي دور القرآن ، ثم يـــأتي شئ آخر الى الساحة هو : ديانة إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء .

وفي ديانة إبراهيم : صلاة وزكاة وحج وصيام .

وعلي الأمة أن تتلقي هذا عن ابراهيم ، لأنه مأمون في نقله ، الذيـــن نقلوه إلينا أمناء علي الرواية ، لا تختل في قلوبهم ، كما أنهم لمم يقتصروا في ممارستها .

ومن هؤلاء الذين نقلوها إلي النبي : أبولهب و أبو جهل (إى وربـــي هكذا قال صاحب هذا الرأى).

والقرآن الكريم شهد لهم بذلك ، ألم يقل الله فيهم ((وما كان صلاتـــهم عند البيت إلا مكاء وتصدية)).

إذا الصلاة قد نقلت إلينا عن إبراهيم تواترا ، ونحن مطالبون بأدائـــها علي نحو ما نقلت إلينا .

و النبي نفسه مطالب بأدائها علي نحو ما كان أبو لهب يؤديها ، وعلي نحو ما كان يؤديها أبو جهل (مكاء وتصديه) أي : صفيرا وتصفيقا .

وما يقال في الصلاة يقال مثله في الصيام وفي الزكاة وفي الحج .

وليس المسلمون وحدهم عند صاحب هذا الرأي هم المطالبون بالصلاة علي نحو ما رسمها زاعما أنه نقلها عن إبراهيم عليـــه الســلام ، بـــل إن اليهود والنصاري مطالبون كذلك بهذه الصلاة ، ولكنهم فرطوا وضيعوا .

وبلغ من درجة اليقين عند صاحب هذا الرأي أنه قـــال : إن إبراهيـــم عندما فرض عليه الصيام كان الرفث أي معاشرة النساء : حرامـــا علـــي الصائم ليلا ونهارا من أول الشهر إلى أخره وجاء القرآن فقط ليبيح الرفث إلى النساء ليلة الصيام (أو ليس هذا تشريعا عظيما)!

ثم يتندر صاحبنا وهو يتحدث عن الصلاة فيقول : إنه ليس هناك مـــن فرق بين الصلاة كما يعرفها المسلمون والصلاة كما بعث بها إبراهيـــم إلا أن الفاتحة الإبراهيمية قد غيرت بفاتحة أخرى (ونحن لا نفهم) .

وهناك حشد من الآيات القرانية يسوقها صاحبنا ورفاقه للدلالـــة علي أن ما ذكره هو ما جاء به القرآن وأكده معتمدا علي قدرته في مجـال التدليس ، وإخفاء الحقائق ، وإلباس الأخشاب أفخر الثياب ليظن الناس أنها رجال وسأسوق بين يديك آيات من القرآن قد ذكرها ونماذج من الفهم قـد اعتمد عليها ومنها قوله تعالي :

((وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منــا إنــك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مســلمة لـك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)) .[1]

ومنها : ((ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكــلا جعلنــا صــالحين ، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخــيرات وإقــام الصــلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين))[2]

ومنها : ((ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفـــا ومــا كــان مــن المشركين)) .[3]

ومنها : ((إن أولي الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبــي والذيــن أمنوا والله ولي المؤمنين))[4]

ومنها : ((وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفــي هــذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء علي الناس فــأقيموا الصــلاة وأتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولي ونعم النصير))[5]

---

(1) البقرة : ١٢٧

(2) الأنبياء : ٧٢ ، ٧٣

(3) النحل : ١٢٣

(4) آل عمران : ٦٨

(5) الحج : ٧٨

ومنها : ((وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقـــوا العذاب بما كنتم تكفرون))(١)

ومنها : ((فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشـــهوات فسوف يلقون غيا))(٢)

هذه هي الآيات التي اعتمد عليها ، وقد فهم منها أن إبراهيم وأبنـــاءه كانوا مسلمين قبل محمد . وهو الذي اختار للمسلمين هذا الوصف ، وقـــد ورثهم الشرائع ، وما كان النبي بعده ولا قبله أن يعدعي أن الشرائـــع قـــد نزلت عليه مفصلة .

إذ الأمم قبله ما كانوا مكلفين بشئ فوق التوحيد ، وما كانت دياناتهم تطالبهم بشئ فوق الإيمان ، والذين جاء وابعده قد اتبعوه علي رسالته ، كـــل نبـــي يديـــن لـــه ويجـــبر أمتـــه علـــي أن تفعـــل وإلا وقعـــوا جميعـــا فـــي المعصـــــــيـــــــة(٣) .

هذا ما قالوه في الإبراهيمية ، وليس عندهم وراء ذلك كلام يقولونه في هذا الموضوع ، ونحن حين نتأمل ما قالوه ليتضح لنا أمور أهمها : -

١ - أنهم ما تحدثوا في الموضوع الذي هو محل الخلاف ، فـــهم لـــم يأتوا بدليل أو شبهة دليل تقول أن الصلاة كانت عند إبراهيم خمس في اليوم والليلة ، وأنها كانت تؤدي علي الكيفية التي نؤدي بها صلاتنا .

وهم كذلك لم يأتوا بدليل ولا شبهة دليل تبين لنا أن إبراهيم كان يصوم أو يحج بالطريقة التي نصوم بها ونحج.

---

(١) الأنفال: ٣٥

(٢) مريم : ٥٩

(٣) راجع قرآن أم حديث ص ٧ وما بعدها ، الأسلام والقرآن والحديث ص ٢٠ وما بعدها .

وكل ما جاءوا به في هذا المجال هو أن إبراهيم كانت عنده صلاة وزكاة وحج وصيام ، وليس هناك من ينكر ذلك .

أما أن صلاته قد فرضت علي أمة محمد فهذا ضرب من الخيال بل هو أمر دون الخيال ، لا يسلم به عالم أو جاهل .

والشئ العجيب أنهم قد سلموا أو طلبوا منا أن نسلم لهم بأنه ما فرض علينا من صلاة وصيام وحج وزكاة أمور قد توارثناها كابرا عن كابر وقد مرت في الأجيال من غير أن يعترض عليها ناقد للتاريخ ، أو فاحص لرواياته ، ثم عززوا موقفهم هذا بقوله تعالي عن الكافرين من قريش يذمهم ولايمدحهم ((وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية)).

المكاء : صوت مجتمع كهذا الصوت الذي يحدثه اجتماع الشفتين مع الأصابع والنفخ بينهما ليسمي هذا عند من يسمعه صفيرا .

والتصدية : صوت له رجع وصدي ، كذلك الذي يحدثه التصفيق في مكان خال يقابله مرتفع من الأرض .

ورب العزة يعيب الناس من المشركين ، حيث تركوا الصلاة التي هي عبادة يمارسها المسلمون ، واستعاضوا عنها بهذا الصفير والتصفيق .

أرأيت إلي هذا الفهم المحدود أو التدليس المقصود ؟!

ليس هناك فيما ذكروه آية واحدة تدل علي أننا قد توارثنا عن إبراهيم عليه السلام : تفاصيل العبادات ركوعا وسجودا في الصلاة وشروطا وكيفية في الزكاة والصيام والحج وهب أننا سلمنا لهم ذلك ، فهذا قسم أوبعض قسم مما تشتمل عليه الشريعة ، فما الذي يملأ فراغ مساحة عظيمة أو جدها التخلي عن السنة في دوائر العقيدة والتشريع والأخلاق وعلاقتنا بالكون علي نحو ما ذكرت لك سلفا .

٢ - أنهم قد اعتمدوا علي ألفاظ عامة تطلق ويراد منها أكثر من معني ، فاستعملوها من غير أن يحددوا المراد منها .

ويصلح للتمثيل في هذا المجال كلمة (إسلام) إذ هي تطلق ويراد منها تلك الصفة التي ينبغي أن تسود علاقة الإنسان بربه ، فأنا وأنت وهو

وهي ، كلنا ينبغي أن تكون علاقتنا بالله متسمة بالخضوع والتسليم إذ إن الإنسان كلما أسلم وجهه لله وازداد من هذه الصفة : ازداد من الله قربا ، وازداد بين الناس رفعة وعظمة .

وصفته التي تليق به وهو علي هذه الحال هي أنه رجل مسلم ، ومعني مسلم : أنه قد أسلم وجهه لخالقه ، وأسلم قيادة لشرعة ، وكل من كان علي هذه الحال مهما كانت الديانة التي يتبعها في زمانها : فهو خليق بوصف (مسلم) وعليه فإن آدم ومن أمن به مسلمون، ونوح ومن تبعه مسلمون وإبراهيم وذريته قد أسلموا ، وكذا سائر الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان .

علي أن الإسلام له معني آخر وهو : أنه علم يدل علي هذا الدين الذي جاء به النبي محمد خاصة ، فإذا كان عيسي عليه السلام قد جاء بالنصرانية وموسي قد جاء باليهودية ، فإن محمدا صلي الله عليه وسلم قد جاء بالإسلام .

الإسلام إذا كلمة تطلق ويراد منها الصفة ، فهي صالحة لأن يتصف بها عباد الله في كل زمان ، وعلي أي دين صحيح ، هي تطلق ويراد منها العلم والاسم ، وهذه لا تكون إلا لدين محمد خاصة .

وكأني بهؤلاء القوم لا يفهمون هذا المعني ، فالتبس الأمر عليهم ، أو فهموه وقصدوا إلي التلبيس علي غيرهم – وهذا أشنع .

٣ – وإني لألحظ علي هؤلاء القوم أنهم قد أحسوا بشئ من الضعف في معالجة الموقف كله ، فلجأوا إلي التخويف ، وإزعاج ضمائر البسطاء بغير مزعج ، ولجأوا إلي أسلوبهم التقليدي فقالوا مثلا : أنت إذا تكذب الله فيما قال إن كنت غير مصدق بما قلت لك ، وأنت إذا تكذب القران الذي يقول : إنه قد أنزل مفصلا ، وأنت لا تحب كلام الله حين يأمرك باتباع إبراهيم .

كلام من هذا المستوي وهو كثير جدا ، يدلك علي شئ واحد تأذن لي أن أتحدث إليك فيه وهو : أنه بعد أن خرجت التقارير تلو التقارير تقول إن

عيب العلمانية ودعاتها في المجتمعات الإسلامية أنـــها قـــ خســـرت القاعدة الشعبية ، فهم برغم ما أنفق عليهم من المال وما صنع لـــهم مـــن الأضواء ودق الطبول ، وبرغم ما أنفقـــوه علـــي تحبـــير الملاييـــن مـــن الصفحات وبرغم وبرغم إلى آخره ، فقد بقي هؤلاء في جانب والأمة فـــي جانب آخر ، مع أن السنين التي أنفقوها غير قليلة ، والمجـــهودات التـــي بذلوها غير يسيرة ، والأموال التي أنفقوها قد خرجت عن العد والحصر ، فجاء هؤلاء القوم لاصلاح ما أفسده الآخرون ، أو علـــي الأقـــل جـــاءوا ليستدركوا عليهم مافاتهم فوجهوا خطابهم للعامة والدهمـــاء ، واســـتعملوا أساليب التهويش والتشويش آملين أن يحصلوا علي قاعدة شعبية بـــالتزوير وعلي كثيرة غالبة بالتدليس ناسين أو متناسين أن الله عز وجل لـــم يمـــرر الدين من خلال العقل وحده ، ولكنه جعل الدين يمر مـــن خـــلال العقـــل والوجدان ، ومن خلال الفكر والفطرة ، فهما معا جنبا إلى جنب يصنعـــان في الإنسان الدين الصحيح ويحملانه علي المنهج القويم وقد أدرك بعـــض علماء الأمة حقيقة هذه اللعبة الصبيانية ، تلك اللعبة التي يقوم بعض الناس من خلالها ليحملوا بعض آى القرآن الكريم علي غـــير محمـــل صحيـــح ويستنتجوا أن النبي مأمور باتباع إبراهيم ، السير علي ملته ، فقال قائلهم : وليس المراد بكون إبراهيم مسلما أنه كان علي مثل ما جاء به محمد صلي الله عليهما وعلي آلهما وسلم من الشريعة بالتفصيل ، فإنه يرد علي هذا أن هذه الشريعة جاءت من بعده كما كانت التوراة والإنجيل من بعـــده وإنمـــا المراد أنه كان متحققا بمعني الإسلام الذي يدل عليه لفظة وهـــو التوحيـــد والإخلاص لله في عمل الخير كما بينا ذلك بالتفصيل في تفسير ((إن الدين عند الله الإسلام ١٩/٣ ، وهذا المعني لا يستطيع أهل الكتاب إنكارة ، فإن ما في كتبهم عن إبراهيم لا يعدوه وما كان النبي يدعوهم إلا إليـــه ، وقـــد نسي أكثر المسلمين اليوم معني الإسلام الذي يقرره القرآن ، وجمدوا علي

المعني الاصطلاحي له فجعلوه جنسية ، غافلين عـــن كونـــه هدايـــة روحية ، وما كان سلفهم الصالح كذلك)).[1]

والحق والحق أقول : إن بعض عقلائهم قد أدركوا ســذاجة وبســاطة هذه الفكرة ، وأنها غير مقبولة من الناحية العقلية ، بل إن الحس التاريخي لدي المشتغلين بالتاريخ ليرفضها جملة وتفصيلا ، إذ لا يليق وقد تقدمـــت العلوم ورقيت المناهج ان نعرض علي الناس فكرة كهذه زاعمين أن ديانة إبراهيم قد مرت في التاريخ بغير تحريف أو ضياع ، ونحن لا نملـــك مـــا يؤيد هذا القول أو يدعمه من الآثار المنسوبة إلي إبراهيم أو الصحف التي تلقاها عن ربه ، والذي يذهب إلي ذلك مستشهدا ببعض آيات القرآن الكريم يجد أن الآيات نفسها تعنفه في فكرته ، وترفض ما صدر عنه من آراء إذ إن هذه آية الأنفال التي استشهدوا بها((وما كان صلاتهم عنـــد البيـــت إلا مكاء وتصدية)) وقالوا : إن هذه الآية دليل قاطع علي أننا الله قد افـــترض علينا في زمان محمد وبعثته ما كان قد فرضه علي إبراهيم من قبل ، وقد حفظه لنا من طريق النقل الصحيح حتى وصل إلى هؤلاء القوم الذين كانت صلاتهم مكاء وتصدية ، الذين يستدلون بهذه الآيـــة ، ولا يلتفتـــون إلـــى أسلوب التعنيف فيها يصدم آخر الآيه فكرتهم ، يبطل استدلالهم بها ، حيث يتوعدهم الله علي هذا المكاء وتلك التصدية التي ارتضوها بدلا عن الصلاة العذاب الأليم ، فقال الله ((وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصديـــة فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)) .

علم العقلاء من هؤلاء أن عرض الإبراهيمية علي هذا النحو ليشغلوا بـــها مساحة من الفراغ تركها إنكار السنة علي رقعة التشريع لا يصلح لهم ولا تؤدي هذا الغرض الذي سيقت من أجله .

---

[1] تفسير المنار ، ٣/٢٧١ ، ٢٧٢ مرجع سبق ذكره

غير أن الله عز وجل لم يرد أن يستمر هؤلاء العقلاء في هذا الطريق إلى أقصي ذرعه وإنما عرض لهم أن قصروا في ذلك تقصيرا مشينا ، فهم تمسكوا بالإبراهمية لكن علي نحو جديد .

وخلاصة هذا النحو الجديد أنهم يقولون : إن إبراهيم أب للأنبياء من بعده ، فهو قد أنجب إسماعيل وإسحاق ، ومن إسماعيل كان العرب ونبيهم محمد صلي الله عليه وسلم ومن أسحاق كان الأنبياء جميعا في بني إسرائيل حتي آخرهم عيسي بن مريم عليهم السلام .

وقد شهدت العصور المتاخرة خلافا شديدا بين الأديان ، وأدي ذلك إلى حروب وتطاحن ، ولا يمكن لهذه الحروب أن تختفي ، كما لا يمكن لهذا التطاحن أن ينقرض إلا إذا اختفي هذا الخلاف الكائن بين الأديان ولمن يختفي الخلاف إلا إذا عدنا جميعا إلى دين واحد ، والدين الواحد لايمكن اختياره من الديانات الموجوده بالفعل ، فلو تم اختيار اليهودية دينا ملزما لغضب أصحاب الديانات الأخرى ، ولو أخذنا الديانة النصرانية لغضب المنتمون إلى الإسلام واليهودية ، والكلام نفسه يقال إذا تم اختيار الإسلام دينا منتخبا وطمس ما وراءه من الديانات .

والبديل المقبول عن هذا كله هو أن يعود الجميع إلى ديانة أبيهم الأكبر إبراهيم عليه السلام ، وهذا إذا ما حدث ارتفع الخلاف بين الناس ، هذا ما قالوه وما يظل كثير من المفكرين الآن يدعون الناس إليه[١]

وهذا الاتجاه الأخير في الإبراهيمية يذكرنا بأمرين :

من اليهود حيث قال : إن اليهودية العالمية ستظل في قلق واضطراب ما دام علي الأرض دين أو أكثر يتميز كل واحد منها بشخصيته المستقلة .

---

[١] راجع فكر رجاء جاروري في مرحلته الأخيرة ، وأنظر الكتاب بعنوان - نواة الوحدة الدينية في العالم (الإبراهمية) لمولفه محمد علي الزغبي طبع الإنصاف - بيروت شارع المعرض - صدر عام ١٣٦٧ هـ و ١٩٤٨ م

والبديل في رأي سارتر علي مايبدو وهو تسييح الأديان ، وإدخال بعضيا في بعض ومسخ هويتها ، وعلي الأخص الدين الإسلامي .

وأما ثانيها :فهو ما قرأناه قديما مما جري علي لسـان حسـين علـي البهاء حيث أكد أن العالم لن يستقر إلا تحت راية وحدة الأديان .

ولقد حمل هذا الرأي من بعده جميع عبيده المنتسبين إليه بدءا من عبد البهاء عباس أفندي ، وانتهاء بأقل رجل فيهم ، وهم لايقصـــدون بـــالطبع سوي الدين الإسلامي ، ولكنهم لم يكن قد انقدح في أذهانهم بعد شكل محدد لدين جديد غير ما كان من تعاليم البهائية ، وهي تعاليم قد رفضها العقــلاء في حينها وفي العصور التالية ، ولكنهم قد استطاعوا أن يغروا بها البسطاء وأصحاب المصالح ، فكان لها رجال يتحمسون لها في علية القــوم علــي اختلاف المجتمعات ، وقد أثبتت التحقيقات في كل قطر إسلامي أن المنتمين إلي فكرة وحدة الإديان أما مأجورون وإما مغرر بهم .

ويبدو أنك لست في حاجة إلى أن أكشف لك عن زيف هذا الاقــتراح الأخير وبيان بساطته ، إذ هو مبني علي الدعوة لديانة إبراهيم ، وهي ديانة لم يحتفظ التاريخ بآثارها .

والنتيجة أن هؤلاء قد أحالوا علي معدوم ، وتعلقوا بوهم ، وإلا فإنـــا نقول لهم كما قال ربنا ((قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين))(١)

تلك هي فرية الإبراهيمية التي افتراها هــؤلاء القــوم حيـن رأوا أن أمامهم مساحة من الفراغ تركتها السنة في الشريعة الإسلامية إن سلم لــهم أن السنة النبوية من سقط المتاع ، وحاشانا أن نسلم لهم .

وقد حرصت وأنا أعرض أمامك هذه الفرية علي أن أسوق كل دليـــل اصطنعوه ، وأتتبع كل تعبير قالوه وأصوره بأفضل مما قالوه حتي لا يقال

---

(١) الأنعام : ١٤٨ ، ١٤٩

إنك لا تدري ما نقول والناس أعداء ماجهلواً والذي لا يدري معـــذور صورنا لك مقولتهم بأحسن مما صورها به ، وتتبعنا جميـــع الاحتمـــالات الواردة في هذا الاتجاه ، حتي أكثرها حداثه ، وحتـــي أكثرهـــا التصاقـــاً بالسياسة ، ثم تتبعنا الآيات التي ذكروها ، وتبين أنها لا تـــدل علـــي مـــا أرادوها أن تدل عليه.

تقمصنا شخصيتهم ونحن نعبر عن رأيهم ، وتحمسنا للتعبـــير عـــن رأيهم أكثر من تحمسهم وبرغم ذلك لم تستطع هذه الفريـــة أن تســـد مـــن الفراغ المطلوب ولا قلامه ظفر ، ولم تستطع أن تلبي في عقول الطـــالبين للفهم ولا قيد أنملة ، فهل هناك من المفتريات ما يسد هذا الفراغ ؟!

إن قلوبنا لتخفق بالحسرة علي المسلمين في كل زمـــان ، وإن أيدينـــا لتوضع علي صدورنا في كل حين ، حين يطرح الحديث عن الإسلام كنـــا قبل أن نتأمل كلام ربنا نفهم الظلم علي أنه اقتناص حق للغير ، وانتهابـــه ليتحقق لمن أخذه بغير حق منفعة عاجلة ، وليكن بعد ذلك في المسقبل مـــا يكون .

وكنا نستقبح غاية الاستقباح أن نجد إنسانا يعطـــي شيئـــا لا يملكـــه لإنسان لا يستحقه من غير نفع يعود عليه ، كنا نستقبح هذا الفعل لأننـــا لا نفهم لماذا يتطوع إنسان فيعطي شيئا لا يملكه لإنسان لا يستحقه من غـــير نفع يعود عليه من هذا العمل ، ونظل أمامه مأخوذين ، فهو نوع من الظلم قبيح أقبح من النوع الأول ، إذ يمكن لنا أن نقول أن الظالم إذا أخـــذ مـــا لغيره معتمدا علي قوته ، أو قوة حيلته لتحقيق منفعه عاجلة يبتغيـــها إنـــه معذور أما نفسه حيث كان أمامها ضعيفا لم يملك مقاومتها .

أما هذا النوع الثاني فإننا لم نجد له عذرا مقبولا او غير مقبول ، لأنه حين يأخذ ما للغير ويعطيه لغيرة من غير منفعة تعود عليه يكون قد خالف جميع المقاييس العقلية والأعراف الاجتماعية ، ودخل في طور من أطوار المرض النفسي الذي يحتاج معه إلي مصحة للاستشفاء .

فلما جاء القرآن جاء ومعه حديث عن نوع ثالث مـــن أنـــواع الظلـــم وسماه القرآن ظلم النفس وهو : أن يقوم المرء ببيع مبادئه والتنـــازل عـــن شرفه ودينه لا لشئ إلا لكي يحقق متعة لغيره ، ويعطيه فسحة من التشفي وهو يثأر منه ومن مبادئه التي لا يدين بها ولا يحترمها .

نوع ثالث من الظلم يستهجنه القرآن ويستقبحه . وبعد أن فتح القـــرآن عيوننا علي هذا النوع الثالث من الظلم رأيناه منتشـــرا فـــي الأمـــة عـــبر عصورها تحتويه رءوس ، وتتنقل به عقول لاهم لها إلا ظلم النفـــس مـــن

غير عاجل منفعه تكافئ هذا الظلم أو تساوي ما يتركه الإنسان من مبادئ وقيم .

راقبنا هذه الأمة في تاريخها المعاصر فوجدنا صورة هذا الظلم بينة لا سترة بها من أمثلتها الصارخة هذا الرجل الذي أطلقوا عليه لقب (الرجل الصنم) في تركيا ، وهو مصطفي كمال أتاتورك الذي ربي بين ذراعي اليهودية العالمية ، ترضعه لبانها ، تهدهده بين كفيها وهو سعيد بذلك مسرور ، فلما أن شب عن الطوق كان ما كان مما نعرفه جميعاً من إسقاط الخلافة الإسلامية ، وتسليم تركيا كلها إلى مصطفي كمال ، وكانت القرارات الأولي التي أصدرها تدور كلها حول أن تركيا جزء من العالم الغربي ، وهي تنتمي حضارياً إليه ، وعليه فإنه لا يجوز والحالة هذه أن يتحمس الأتراك إلي الإسلام ، ولا أن يحملوا لواء حضارته .

ومن هنا فإن الزي القومي الذي يرتديه الرجال أو النساء زي لا يعبر إلا عن انتماء هذه الأمة إلي دين ليس لها ، وإلى حضارة غريبة عن طباعها ، ولا مخرج لها من ذلك كله إلا أن تخلع الطربوش وتلبس القبعة وأن تتجرد من ثيابها القومي وترتدي بدلاً منه الملابس الأوربية ، وما يصدق علي الرجال ينطبق مثلة علي النساء ، ثم هذه اللغة العربية لغة غريبة عن الأمة التركية طارئة عليها ، جاء بها إليهم الإسلام والمسلمون فما بال الأتراك يتمسكون بهذه اللغة ويكتبون بها تاريخهم وحضارتهم .

لابد أن يتخلصوا منها وأن يكتبوا بحروف أخرى غربية ، والقصد هنا واضح وهو إقامة سد من تراب كثيف بين تركيا وماضيها الإسلامي المكتوب بحروف عربية ، وهو حروف لو طمست لكان الأتراك في جيلهم الحديث علي الأقل ، والأجيال التالية معزولين تماماً عن تراثهم القديم منتمين إلى تراث اخر لا جذور لهم فيه ، فيعجزون العجز كله عن أن ينتموا إلي ماضيهم الأصيل ، كما يعجزون بنفس الدرجة عن أن ينتموا إلي تراث لا جذور لهم فيه ، فيتمكن الأجنبي من أن يلتهمهم وهم في حالة من انعدام الوزن .

هذا ما فعله الرجل الصنم في تركيا ، وقد تكررت الصورة نفسها في كل الأقطار الإسلامية تقريباً في تلك الحقبة من الزمن .

ومع هذا الظلم الصارخ للنفس الذي مارسه الرجال الأصنام رأينا محاولة أخري تعضد هذه المحاولة وتساند تلك الأدوار ليضمن الآخرون استمرارها وتدفقها في العطاء .

ذلك أنهم نشروا في كل بلد أناسا لهم صفات معينة ، وطلبوا منهم أن ينشروا في هذه البلاد مبادئ العلمانية .

والعلمانية ليس لها من معني في الشرق أو في الغرب إلا اجتناب الدين في مسائل تنظيم السلوك ، وترتيب قضايا المعايش ، سواء أكان الدين مسموحاً له في أن يمارسه الإفراد بصفة شخصية أو غير مسوح له بذلك حسب الحال في كل قطر.

والوسيلة العملية التي تأتي بأحسن الثمار وأسرعها أن يتلف هؤلاء الرجال الذين طلب إليهم نشر مبادئ العلمانية حول الرجال الأصنام في كل قطر ليؤدوا غرضين :

الغرض الأول : أنهم يمنعون عن كل رجل منهم كلمة حق أو مشورة صدق فيظل الرجل معزولا عن عقل الأمة عزلاً تاماً ، وبذلك يضمنون أنه لو قذف القدر برجل وطني مخلص أو متدين متحمس إلى مركز القيادة فإنه يكون والحالة هذه رجلاً بلا عقل وأنساناً بلا قلب .

والغرض الثاني : من الغرضين هو أن هؤلاء الموكلين بنشر مبادئ العلمانية حين يكون عملهم إلي جوار القيادة في الأمة يضمنون بحكم مراكزهم أن يكبتوا مشاعر أهليهم وذويهم ، وأن يرهبوهم في أوطانهم وأن يشددوا من قبضتهم علي قلوبهم ومن طمسهم علي أموالهم حتى لا تقوم لهم قائمة ولا يرتفع لهم صوت .

رسمت الخطة علي هذا النحو منذ آماد بعيدة ، وكان الذين رسموها يمتازون بطول النفس ، ويمتازون بالحكمة والأناة ، فاصطنعوا لعملهم هذا كل وسيلة ممكنة ، واتخذوا لتحقيق غرضهم سبلاً مختلفه من الحيل وأدربا

متنوعة من المكر والخداع ، وطال الوقت ونفد الصبر ، وقـــذف الله برجال إلى السلطة عندهم الحمية والخلق وعندهم الدين والشهامة فقـــاوموا التيار العالي بحكمة وخبرة ودهاء وسيسجل التاريخ يوماً ما لهؤلاء سطوراً ناصعة البياض علي جباههم .

وقبل هذا وبعده وجد الذين خططوا وتحمسوا لما خططوه أنهم برغـــم طول صبرهم الذي نفد ، وصلابة عزيمتهم التي فلت وجـــدوا أن الوقـــت الذي طال ، والعمل الذي بذلوه لم يزد هذه الأمة في شعوبـــها إلا حماســـة لدينها ومبادئها ، وكان التقرير الأخير يعرك أذن العلمانيين علـــي حصـــاة وهو تقرير قد خرج من الغرب خلاصته ما ذكرت لك ، وهو أنـــه برغـــم طول النفس ، وبرغم كثرة البذل والعطاء ، وبرغم هذه الصفحـــات التـــي حبرت وقد بلغت الملايين ، برغم هذا كله وكثير غـــيره بقيـــت العلمانيـــة ودعاتها في جانب والشعوب والأمم كلها في جانب آخر ، وهو أمر مقلـــق يحتاج إلى تغيير في الحظة والي تعديل في المسار .

وتغيير الخطة هذه المرة يقوم علي أساس أن الواحد من دعاة العلمانية يعلن أمام الناس أنه متحمس للدين ، ملتزم بمبادئه ، حام لحماه ، لكنه مـــن خلال هذا الحماس عليه أن يقوم بتخريب هذا الدين وأن ينقض أساسه وأن يتولي إسقاط سقفه علي رءوس أصحابه ، إذ لا مفر من أن الشجرة يجـــب أن يقطعها أصحابها .

وكان هذا هو الاتجاه الجديد ، وكانت هذه هي الخطة الاحتياطية التى يجب إبرازها للأمة ، فهي علمانية ولكنها مغلفة بستار وغلاف الدين .

وقديماً قال قائلهم إننا سنأتي بأقوال الغربيين والمســـتشرقين وتقدمـــة للأمة مهماكانت مخالفة للدين ، لكننا سوف نلبسها ثوباً رقيقاً ناعماً كـــي لا يزعج المسلمين مسها .

في هذا الإطار العالم كان هذا اللون الجديد من الحل ، واللون الجديـــد من الحل هو أن هذه المساحة التى تركها إنكار السنة واســـتبعادها فارغـــة علي رقعة الشريعة الإسلامية الفسيحة نملؤها بالعرف ، وندعي أن الله هو

الذي أمرنا بذلك ، ولنا في كلمة (المعروف) الواردة في القرآن الكريم متسع ، إذ بإمكاننا أن نحمل كل كلمة (معروف) على العرف وعوائد الناس .

ولنا في الإطار المذهبي العام للإسلام متسع آخر يسعنا حين نريد أن ندخل علي الإسلام أمورا ليست منه ، كل ما في الأمر أننا فقط نحتاج إلى لون من المواءمة بين الإطار المذهبي العام وما نريد أن ندخله عليه من آراء غريبة عنه كل الغرابة ، وبعيدة عنه كل البعد ، وهذا النوع من المواءمة وافتعال المؤاخاة أمر لا يحتاج إلا إلى شئ من اللباقة مع قليل من السفسطة ، وهما أمران لو توافرا لإمرئ كانت أزمة الخلق بين يديه .

هذا هو التوجه الجديد الذي صمم عليه فلول العلمانية بعد أن خسروا معركتهم أمام الشعوب ، وناصية الشعوب بأيديهم ، وبعد أن حال الله بينهم وبين قلوب الأمة ، وهم يدفعون بأفرادها إلى جحيم الهلاك ، وزمهرير المجافاة للدين .

ولكي نكون موضوعيين أكثر : يجب أن نطرح هذا السؤال وهو : ما الذي فعله منكرو السنة علي وّجه التحديد حين رأوا أن الحل في الأعراف الاجتماعية ، وفيما تواضعت عليه الأمم من الناس ؟

والجواب علي هذا يمكن أن نأخذه من بعض محاولتهم المنشورة واسمح لي عزيزي القارئ أن أعرض أمامك بعض هذه المحاولات .

إننا جميعا نعلم أن القرآن الكريم نزل في مكة أولا ، ثم بعد ذلك تابع نزوله في المدينة بعد الهجرة .

والقرآن الكريم باعتباره كتابا إلهيا يعلم نفوس البشر وكيف يعالجها وعلي أي المناهج تستقيم ، فكانت معالجات القرآن لسكان مكة تتصل جميعها بالقلوب لإصلاحها من داخلها وتصحيح وعيها بالتوحيد الذي هو أساس الدين كله ، والابتعاد بها عن منزلقات الشرك حتى تأمن من داخلها ، إذ المشرك – كما نعلم – موزع الهدف مشتت الوسائل علي نحو ما قال ربنا ((ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به

الريح في مكان سحيق)) في مكة إذا كان القرآن الكريم يعالج قلوبـــا وأرواحا ونفوسا يجذب أصحابها جذبا إلي المسار الصحيح بمقدار ما ينأي بها عن كل سبيل معوج ، وهذا الهدف السامي يتطلب أن يكـــون القـــرآن الكريم منسجما في أسلوبه مع الحالة التي يعالجها فكـــانت آياتـــه قصـــيرة وسريعة ومتلاحقة ، وكانت ألفاظه شديـــدة وقويـــة وزاجـــرة ، وكـــانت موضوعاته تتصل بالعقيدة وبأصول التشريع العامة ،وبقواعد الأخلاق التي لا يختلف عليها اثنان .

كانت هذه بعض سمات آي القرآن المكي .

وحين هاجر النبي من مكة إلى المدينة بدأ في معالجة جيل من البشـــر يطبق عليه هذا الإطار العام ، ويسقط عليه أحكامه التـــي تضبـــط حركـــة الإنسان ، وحيث تنتهي به إلي أن يكون هواه مع الشرع الذي آمن بمنزلـــه وصدق بنبوة متلقيه .

وكان لابد أن يتأخر هذا الهدف حتى يصبح حول النبي رجال يضـــع علي أكتافهم المسئولية ، ويطلب منهم أن يتحملوها .

ولما توافر هذا اللون من الرجال حول النبي بدأ القرآن الكريم وهـــو الوحي المتلو، إلى جوار الوحي الخاص الذي يعبر عنه النبي بألفاظه فـــي معالجة شئون الدولة الوليدة والأمة الناشئة .

وكان لهذا التشريع الذي عالج الأمة في العصر المدني مساحتان تعبر إحداهما عن قوانين ثابته تتصل بأصول التشريع ، وتعبر الأخـــرى عـــن جوانب مرنة إتصالها بالفروع فقط ، ثم ترك التشريع مساحة كبـــيرة مـــن المباح وهي : و تتعلق بسلوك الإنسان الذي ليس للشرع فيه مطلوب بـــأمر أو بنهي ،ومنع المسلمون والوحي ينزل أن يضيقوا علي أنفســـهم بكـــثرة السؤال حول قضايا تلك المساحة المرنة .

وللتشريع خصائص بجمة يعرفها فرسان هذا المجال وجهابذة القانون في الشرق والغرب .

وكان التشريع بخواصه تلك عاملا مقلقا لأصحاب المذهبيات المختلفة الذين لا يريدون الحق إلا فيما قالوه ، ولا يبتغون الهدي إلا فيما ابتكروه ، وهؤلاء قرأوا القرآن ودرسوا التشريع وهم علماء يدركون قيم الأشياء ، فأدركوا أن الإسلام خطر علي مذهبياتهم كلها لما فيه من القدرة علي الانتشار ، ولما لديه من المقدرة علي قيادة البشر من غير أن تختلط عندهم المشاعر ، ومن غير أن تمتزج لديهم في لحظة أسي ، ليست بالبعيدة عن لحظات الأمل ، الضحكات بالدموع .

قرأ العلماء القادرون علي الفهم الإسلام بما لتشريعاته من مميزات فعلموا أن فيه الخطر كله علي مذهبياتهم ، فصرحوا بما أنقل أمامك بعضه:

قال المستشرق جورج براون : ((لقد كنا نخاف شعوبا مختلفة, ولكن بعد الاختبار لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف ، بيد أن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته علي التوسع ،وقوته في الإخضاع ، وحيويته في الانتشار .

إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي الصليبي)) .

وقال القس الأمريكي صموئيل زويمر رئيس جمعيات التبشير في الشرق في مؤتمر القدس التبشيري الذي عقدته إرساليات التنصير الصليبي في عام ١٩٣٥ : ((ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية لأن في هذا هداية لهم وتكريما ، وانما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ، ليصبح مخلوقا لاصلة له بالله ، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها)) .

وقال المنصر الصليبي (شاتليه) في كتابه الغارة علي العالم الإسلامي : ((إذا أردتم أن تغزوا الإسلام و تحصدوا شوكته ، وتقضوا علي هذه العقيدة ، التي قضت علي كل العقائد السابقة واللاحقة ، والتي كانت السبب الرئيسي لاعتزاز المسلمين وشموخهم ، فعليكم أن توجهوا

جهود هدمكم إلي نفوس الشباب المسلم والأمة الإسلامية ، بإماتة روح الاعتزاز بماضيهم وتاريخهم وكتابهم (القرآن) وتحويلهم عن ذلك بنشر ثقافتكم وتاريخكم ، ونشر روح الإباحية ، وتوفير عوامل الهدم المعنوي وحتي لو لم نجد إلا المغفلين منهم ، والسذج البسطاء ، فإنه يكفينا ذلك لأن الشجرة يجب أن يتسبب في قطعها أحد أغصانها)) .

وقال المنصر (تاكلي) : ((يجب أن نستخدم القرآن ، وهو أمضي سلاح في الإسلام ، ضد الإسلام نفسه ، حتي نقضي عليه تماما .. وذلك بأن نقول للمسلمين ، إن الصحيح في القرآن ليس جديدا ، وأن الجديد فيه ليس صحيحا))[1]

وهذه النقول التي وضعتها بين يديك تفيد أن الغرب كان يحسب حسابا لشعوب وأمم مختلفة ، وتبين له بعد الاحتكاك مع تلك الشعوب أن الصراع بين الغرب وبينها صراع علي المادة وهو صراع تافه إذا حسبت النتائج بميزان الهزيمة والنصر .

والأمر الذي يخيف حقا هو أن يكون النزال في ميدان العقائد والقيم والإسلام له في هذا المجال باع طويل بما له من سمات تسهل له التوسع والانتشار .

والمواجهة لا تصلح لحسم معركة من هذا النوع ، إذ لابد من الخداع والتضليل ، والخداع هنا يحتاج إلي أقرب الطرق ، وأقرب الطرق لقطع شجرة أن تقطع هذه الشجرة بيد أصحابها حتي لا يعقب القطع نزاع .

وانطلاقا من هذا المبدأ لا بد أن يهدم الإسلام بالقرآن ، ولا يهدم الإسلام بالقرآن إلا إذا شوشت معاينة في رءوس تابعيه ، فيقال لهم إن الجديد فيه ليس صحيحا ، وإن الصحيح منه ليس جديدا ، وحتي إذا لم يجد

---

[1] رشاد خليفة صنعية الصليبية العالمية د / خالد نعيم ، طبع المختار الإسلامي ص ٧ وما بعدها ، بدون تاريخ .

الغرب بدا من الاعتماد علي المشوشين والبسطاء والمغفلين ، فإن هذا وحده يكون كافيا لإحداث نوع من الخلل في صفوف المسلمين .

تلك خلاصة ما نقلت لك من الأقوال وهي أمامك بإمكـــانك أن تعـــاود التأمل فيها ، ثم تنطلق بعد ذلك معي علي بصيرة : لنعلم كيـــف عـــرض علينا منكرو السنة أمرا هو من أخطر الأمور ، وهو محاولة هدم الشريعة بالقرآن نفسه ، ومطلوب منا أن نقتنع بذلك وإلا كنا مسلمين متخلفين ، وما استطعنا أن نقدم ديننا لغير المسلمين ، وكنا في كل حال مكذبيـــن لله فيمـــا يريد منا أن نفعل ، ومكذبين له وحاشانا أن نفعل - فيما طلب منا أن نؤمن به.

وإني لأحب أن تكون هادئ الطبع وأنت تسمع هذه المحاولة الجديـــدة التي سأقصها عليك الآن ، والتي يعرضها علينا منكرو السنة سدا للفـــراغ وقطعا للذرائع .

قالوا : إننا مسلمون (وهم يتحدثون عن أنفسهم) ولكننا لسنا كســائر المسلمين ، إننا نحب أن نقدم الإسلام في صورة جديدة للعالم ، وحتـــي لا يكون الإسلام متعاوضا مع قوانين الدينا ، فأنتم تعلمون معاشر المســلمين أن الإسلام فيه نقص شديد وهو يتحدث عن القانون العام ، وفيه نقص أشد وهو يتعامل مع القوانين الدولية ، ونحن لا بد أن نداري ما عندنا من نقص ، وبإمكاننا أن نخرج علي الإنسانية بإسلام جديد ، فقط ينبغـــي أن نعـــدل تعديلا خفيفا فيما اتبعه النبيّ محمد والمسلمون من بعده .

لذلك أن القرآن الكريم قد نزل علي مرحلتين ، إحداهمـــا فـــي مكـــة والأخرى في المدينة .

والقرآن المكي قد جاء بمبادئ عامة وأطر شاملة ، وحمل الناس علي أن يدخلوا في هذا الإطار العام ، وعلي أن يعتنقوا تلك المبـــادئ الشاملـــة فالمهم أن يكونوا جميعا مؤمنين بالله ، وإن كانت هناك ضرورة لصلاة أو صوم أو حج فلا بأس .

والقرآن المدني قد عالج تجربة في المدينة مارسها النبي محمد والذين معه ، والله قد نزل التشريع مرتبطا بهذه التجربة الخاصة ، وهذا خطأ في التشريع إن قصدناه أن يعبر عن رسالة دائمة ، وهو صواب إن قلنا إنه يعبر عن تجربة خاصة في مجتمع معين لسنا ملزمين بتعميمها .

وخلاصة الأمر أن القرآن قد نزل علي مرحلتين ، تعبر إحداهما عن إطار ومبادئ عامة ، وتعبر الثانية عن تجربة خاصة هي التي تشتمل علي التشريع كله .

وإذا ما أردنا أن نداري أخطاءنا أمام الدنيا حتي لا نلام أو نعير بهذا الدين الملئ بالقصور والنقص ، فأنه من الممكن أن نعتمد القرآن المكي أساسا عاما للشريعة ، وكل ما فيه أنه يطالبنا بالإيمان بالله والعمل الصالح والخلق الرشيد ، ونحن بعد ذلك نملأ الفراغ في التشريع بما يمليه علينا العرف ، وبما تفرضه العادات في المجتمعات ، كل بحسبه وطبقا لظروفه.

أما القرآن المدني فإنه يتحتم علينا أن نحكم عليه بالنسخ والإلغاء فهو قد عبر عن فترة من الزمن لسنا ملزمين بها .

ومن حسن الحظ ويمن الطالع أن المسلمين ممثلين في علمائهم قد قالوا بإمكان النسخ في القرآن ، وهو مبدأ رائع لولا ما فيه من اعتقاد في أن اللاحق ينسخ السابق ، وهذا اعتقاد لا مبرر له ، إذ ما المانع أن نقول : إن المتأخر هو الذي نسخ وأن المتقدم هو الذي نسخه[1] . (كذا)

هكذا صوروا لنا محاولتهم الأخيرة التى رأوا أنها تحل مشكلتهم في شغل هذه المساحة التى تركها إنكار السنة علي خريطة التشريع الإسلامي وارتكبوا في سبيل ما قالوه أخطاء علمية ، وما ذلك إلا استجابة لما نقلناه

---

[1] راجع كتاب نحو تطوير التشريع الإسلامي ومقدمه الترجمة لمولفه في اللغه الإنجليزية عبد الله أحمد النعيم ، نقله إلي العربية وقدم له حسين أحمد أمين طبع سينا للنشر الطبعة الأولي ١٩٩٤ م ، وراجع لماذا القرآن ؟ عبد الله الخليفة مرجع سبق ذكره وغيرهما.

إليك من قبل من أقوال ، وإلا فإني سوف ألفتك إلي ما قلته من القانون والشريعة لا يجوز أن يكون الواحد منها حاميا للواقع ، وإنما قيمـــة كـل منهما في أن يكون راعي مثل يحمل الناس عليها بقدر الطاقة مـــن غـير إرهاق أو استغراق لكل الوسع .

ولا يقول إنسان ما بأن القانون يحمي واقعا إلا إذا كان يقصد إنسان ما بأن يدمر أمة فيسلط عليها جرثومة فساد الأخـــلاق أو ميكـروب الفرقـة والشقاق.

وهذه إحدى وصايا بعض المبشرين علي نحو ما نقلت بين يديك مـــن نقول تعبر عن رأي المبشرين .

وإني لأحاول الآن أن ألفتك كذلك إلى مؤلف كتاب استحيا من النـــاس أن يذكر اسمه ، ووضع بدلا منه اسما مستعارا علي ما أظن ، وقد بين لنا في مؤلفه الصغير الحجم أن الشريعة بعد إنكار الســـنة ينبغـي أن تمـلأ بالعرف ، وأن تشغلها عوائد الناس والأمم في كل زمان بما يناسب الزمان ، ويناسب عوائد الأمم ، ومؤلف الكتاب يفاجأ بعد إنكار السنة أن القـــرآن الكريم قد اشتمل علي آيات نسبتها إلى آيات القرآن كله كنسبة واحد إلـــى ثلاثين مائتا آية فقط في القرآن هن اللواتي يتحدثن عـــن التشريـــع ، وقـد فوجئ صاحب الكتاب المذكور بهذه الآيات وعددها ، فقال في جرأة علـــي ربه : إن هذا مقصود الله عز وجل وتلك إرادته ، لأن هذا القدر كاف جدا حتى تترك مساحة كافية لما تعارف عليه الناس كي يخضعوا إليه ويتعاملوا به نظاما كاملا يحل محل الشريعة الإسلامية .

وهم يؤكدون أن الله راض كل الرضا عن هذا النظـــام الـــذي يعتمـــد عوائد الناس ويأخذ بأعرافهم .

وكأني هنا لست أدري أي مقياس في العقل يمكن أن يقاس إليه الخطأ والصواب حين تختلف العوائد بين الأمم إلي حد التناقض وكل أمة تعتمـــد عوائدها بأمر الله .

وأي ميزان هو ميزان الشعرة الدقيق الذي علـــي أســاس منـــه سيدخل الناس الجنة إذا أطاعوا ربهم ، وسيلقون في سعير جهنم إذا أساءوا وقصروا .

إباحية مطلقة يريدها هؤلاء العلمانيون حين تســربلوا بــرداء الديــن وزعموا أنهم أئمة المتقين .

إن الدين كالبحر يطهر النجس إن أراد النجس أن يطـــهر ، ويغــرق المجرم إن أراد المجرم أن يسبح عكس التيار .

وللجميع يوم مع الله تبيض فيه وجوه وتسود آخرى . وهكذا تبين لـــي ولك : فشل هذه المحاولة الثانية ، لم نطل الحديث فيها ، ولم نشأ أن نقــف لمناقشتها قانعين بأي قد كشفنا لك عوارها وفضحنا أمامك نواياها .

ولمناقشة العلمانية مجال آخر في بحث سطرناه من قبل[١]

---

[١] انظر للمؤلف : العلمانية الحقيقة والخيال .

تغيير المنظومة

لقد عجز القوم فيما سبق عن أن يملأوا الفراغ الذي تركته السنة حين أجبروها ألا تقتحم عليهم الشريعة الإسلامية بوصفها ابنـــا غــير شرعــي للإسلام .

ترك استبعاد السنة فراغا حاولوا أن يملأوه بادعاء أنهم يملكون شريعة تسمي الشريعة الإبراهيمية .

وحاولوا أن يملأوه بما يعرفونه بالعرف السائد ، وهو الذي تواضعت عليه المجتمعات والأمم في كل عصر ، ففشلوا في الحالتين علي نحو مـــا رأيت ، فحاولوا هنا – في نزوة حمقاء علي الشريعة الإســـلامية ، إهـــدار كامل لمشاعر الأمة أن يغيروا المنظومة التى تعارفت عليها الأمة وورثتها عن نبيها محمد عليه السلام .

ووضعوا مكان هذه المنظومة : منظومة أخـــرى ابتكروهـــا ابتكـــارا ويخدعون بها العامة والبسطاء من أصحاب الأهواء والمصالح ، ويزعمون أنهم في منظومتهم الجديدة يرتبطون بالقرآن أكثر من ارتباط الأوائـــل بـــه وهم يفهمونه علي نحو لم يفهمه القدماء والمحدثون .

قلت سابقا إنني لست بالرجل الذي يبحث عن النوايا والأغراض ، فأنـــا لا أهتم كثيرا بالوسائل والغايات .

وانطلاقا من المبدأ : سوف أحاول أن أعرض عليـــك مـــا ابتكـــروه ويريدون أن يحملوا المسلمين عليه من شريعة جديدة مخلخلـــة ومهلهلـــة يصعب أن تدرك وظيفتها ، ويستعصي عليك أن تستنبط أثارها في المجتمع والناس .

وسأعتمد علي تصوير هذه المنظومة علي كتاب من جزءين كبـــيرين كتبه أحدهم وهو إنسان مغمور كآلاف النـــاس مـــن المغموريـــن أمثالـــه وصاحب هذا الكتاب هو : مصطفي كمال المهدوي الذي لا أعرف له وطنا

ولا دينا ، ولست أدري إن كان هذا هو اسم حقيقي ، او اسم مستعار والكتاب هو : (البيان بالقرآن) جزؤه الأول يقع في خمسمائة وإحدى عشرة صفحة من القطع المتوسط وجزؤه الثاني يقع في ثلاثمائة وخمس وأربعين صفحة من نفس القطع .

كتاب كبير نسبيا يحتوي علي محاولة أقل ما يقال فيها إنها عبث بعقول الصبيان ، لا يهتم به العقلاء ، ولا يحترمه المميزون ، وسأعرض عليك قسطا من هذه المنظومة الجديدة من باب أن النبات الطفيلي علي سطح الماء ، وإن كان لا يؤثر في الماء تحته إلا أنه علي أية حال يعوق الحركة

وأنا لن ألتزم بتنظيم قام به في كتابه ، إذ هو مثلا قد بدأ بالحج وأنا سأبدأ معك بالصلاة لأكون مستقا مع فكرك في ترتيب المنظومة الإسلامية كما تعرفها .

١ - كلامهم في الصلاة :

والصلاة عندهم لا تعني سوي : رابطة وصلة بين موجودين علي أي مستوي كان من مستويات الوجود ، فهي صلة بين الله وعباده ينشئها الله أو ينشئها العبد ، وهي صلة بين النبي والملائكة ، وبين النبي وربه ، ينشئها الله أو ينشئها الملائكة ، وهي صلة بين المؤمنين ونبيهم ينشئها المؤمنون ويؤسسونها .

علي أن هذا التعبير الوارد في هذا الكتاب الذي نحن بصدره يحتوي علي شئ من التعديل للألفاظ التي كان يستعملها متنبئ هذه الطائفة وراء المحيطات ، فجميع الوثائق التي تحت يدي تفيد أن نبيهم وراء المحيطات كان قد فسر الصلاة بالمعونة والتشجيع ، وشرح آية الأحزاب علي هذا النحو ((إن الله وملائكته يصلون علي النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)) علي التشجيع والمعونة والمساعدة حتي يخلص له رأيه في النهاية ، وهو أننا لسنا مطالبين ، بل إنه لا يقبل منا أن نصلي علي النبي بعد موته ، إذ كيف نشجع من مات ورحل عن عالمنا ؟

جاء صاحبنا اليوم ليعدل شيئاً من التعديل في كلام المتنبي ور...
المحبطات ليلائم عقل المسلمين العرب ، إذ هم بلغتهم أبصر ، وعلى فهمها أقدر ، وسواء وقفنا عند العبارة الأصلية ، أو العبارة بعد تعديلها ، فإن مفهوم الصلاة كما اختاروه : لا يدل إلا على هذه الصلة بالمعنى العام .

والذي يبدو لي أن الصلاة بالمعني الشرعي عندهم مطلب جزئي لا يأخذ قسطاً كبيراً من اهتمامات الشريعة ، إذ إن مسألة الأقوال والأفعال التي تبدأ بالتكبير وتنتهي بالتسليم : مسألة غير ضرورية ، ولا هي بالأمر الذي تتوقف عليه المنظومة في الشريعة الإسلامية .

أما أوقات الصلاة : فإن المسلمين من أول محمد عليه السلام وإلى الآن ما رعوها حق رعايتها ، ما فهموها كما ينبغي أن تفهم ، إذ الله عز وجل قد افترض علينا في اليوم والليلة ست صلوات :

أ – صلاة الفجر ووقتها من حين يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود وإلي مطلع الشمس .

ب – وعند الشروق تفرض علينا صلاة أخرى تسمي صلاة الصبح ووقتها إلى الظهيرة ، ولم يفطن المسلمون إليها منذ النبي وإلى الآن إلا في يومين من كل عام هما يوم الفطر ويوم الأضحي ، وكان من الواجب أن يفطنوا إليها في سائر الأيام ، ولكن عندهم أن الأمر بها على الإطلاق فيكفيهم منها ما فعلوه .

جـ – صلاة الظهر وهي تبدأ من ساعة تتوسط الشمس كبد السماء وإلى أن يصير ظل كل شئ مثله .

د – وصلاة العصر وهي حين انتهت صلاة الظهر وإلي دلوك الشمس .

هـ – وصلاة الليل الأولي من دلوك الشمس إلى الغسق باستمرار غير منقطع .

و – وصلاة الليل الثانية وهي من غياب الشفق إلى منتصف الليل .

هذه هي صلوات الليل واليوم المفروضة ، وعددها ست صلوات لا يجب علي المرء من الصلاة غيرها .

غير أن هناك صلاة مندوبة هي صلاة قيام الليل .

ثم هم يوهمونك أن ذلك مأخوذ من القرآن بما لايخفـــي عليـــك إرادة التدليس فيه .

أما شروط صحة الصرة فهي مثلاً : أن يكون المرء واعياً بما يقـــرأ واعياً تاماً ، فإن قرأ بلا فهم فلا صلاة له ، وإن كان قد غاب عقلــه فــلا صلاة عليه .

ويشترط أن يكون طاهراً من الحدث الأكبر والأصغر .

والحدث الأكبر عندهم لا يكون إلا بالجماع وحده ، وهو اللقاء الجنسي أما ما عداه من الاحتلام أو الحيض أو النفاس فهي كلها أمــور لا توجــب غسلاً ولا تمنع من الصلاة كما يقولون .

والذي يوجب الوضوء بمعني نواقض الوضـــوء عندهــم هـــي هـــذه الأمور:

أ - المرض عندهم ناقض للوضوء وحجتهم العقلية أن المريض يحتـــاج إلي تنشيط جسد ، واستعادة همة ويقظة وكانت الحكمة وراء مشروعية أن المرض من نواقض الوضوء ، وأنا هنا لن أعتذر إلـــي الفقـــهاء ، وإنمـــا سأوجه الاعتذار كله إلى الأطباء الذين ألمح الواحد منهم فاغراً فاه مشدوها ، إذ من المرض ما يحرم معه استعمال الماء.

ب - والثاني من نواقض الوضوء هو السفر ، فإذا سافر الإنسان لسبب أو لآخر : انتقض وضوؤه (سبحان ربي إنك أنت غفار الذنوب).

جـ - ومن نواقض الوضوء عندهم : البول والغائط خاصة ، وقـــد قـــال الكاتب هنا ، وأنا أظنه يمزح : إن الغازات الخارجه من البطن لا تنقـــض الوضوء ، سواء خرجت من فمه أو من غيره ، كنت أظنـــه يمـــزح لكـــن تخيلته فوجدت علائم الجدة علي وجهه ، فعلمت أن الشريعة قد اســـتهدفت بكل ما يقول .

د – والناقض الأخير للوضوء هو : أن يتفحص ويتحسس الرجـــال المرأة بيده (هكذا قال) ولست أدري هل سينتقض وضوء الرجل وحده أم أن وضوء المرأة ينتقض أيضاً .

المهم أن شرط صحة الصلاة هو : أن يكون المرء طاهراً من الحدثين الأكبر والأصغر اللذين سببهما ما علمت.

وليس من شروط صحة الصلاة نقاء المرأة من حيضها ونفاسها فـــهذا أمر لا يمنع المرأة من الصيام ولا من صلاة ، ويسخر الكاتب من المسلمين ، حيث منعوا النساء من أداء الشعائر كالصلاة و الصوم والطواف بـــالبيت والمكث في المسجد بغير دليل شرعي وهي حائض أو نفساء .

وإذ حاولنا أن نتأمل في عدد الركعات في كل صلاة فلن نجد إلا ذلك التساوي المطلق في عدد الركعات في فرائض اليوم والليلة جميعها ، إذ إن كل فريضة منها تقوم علي ركعتين اثنتين ، فصلاة الفجر ركعتان ، وصلاة الصبح ركعتان ، وصلاة الظهر ركعتان وعلي هذا أبدا باطراد إلا في حالة الخوف فقط فهي التى يتأتي فيها الاختلاف ، إذ الذين يؤدون صلاة الخوف تكون الصلاة بالنسبة للمأمومين ركعة واحدة في كـــل فريضـــة ، ولكنـــها بالنسبة للإمام ركعتان ، والفرق بينهما في درجة الخوف الذي هـــو العلـــة الحقيقية وفي قصر الصلاة ، والإمام لأنه مستور بالجماعة التـــي تـــؤدي الصلاة خلفه ، ولأنه آمن بسبب حراسة الطائفة التي لم تصـــل معـــه ، لا يجوز له أن يقصر في صلاته .

وطريقة أداء صلاة الخوف علي نحو ما يؤديها المســـلمون ، يقســـم الإمام جنوده نصفين ، يصلي النصف الأول خلفه نصف الصلاة ويسلمون ، وتكون لهم صلاة كاملة ، ولتأت الطائفة الأخري التي لم تصل لتصلـــي خلف الإمام ، ويتم الإمام بالطائفة الثانية صلاته .

وهذه هي الحالة الوحيدة التي يتأتي فيها قصر الصلاة .

والصلاة في جملتها عند هؤلاء : اثنتا عشرة ركعــة فــي ســتة أوقات ولا يعترفون بصلاة رباعية ولا ثلاثية ، لأنها واردة في السنة وهو لا يعترفون بها .

أما كيفية الصلاة عندهم فهي الأخرى عجب من العجب ، يدخل المرء إلى الصلاة بتكبيرة الإحرام واقفا ، ويقرأ بعدها ما تيسر من القرآن من أي منطقة شاء ، وبأي مقدار أراد .

ولا مانع بالطبع أن يقرأ بالفاتحة ، لا على أنها ضرورة للصلاة وإنما لأنها جزء من القرآن الكريم ، ولأن الله قد أعطاها له هي والقـــرآن كلـــه مضافة إلى السبع المثاني.

والسبع المثاني عنده هي : كل عضوين في الإنسان متشابــهين فـــي الشكل والوظيفة ، وعليه فالسبع المثاني التي أعطاها الله لنبيه هي الأذين والعينين ، واليدين ، والرئتين ، والكليتين ، والرجلين ، والشفتين .

و الله عز وجل قد أعطي النبي هذه السبع المثاني ، وأعطــــاه معـــها القرآن الكريم فهو القائل : ((ولقد أتيناك ســـبعا مـــن المثـــاني والقـــرآن العظيم)).

وأنا أراك الآن تتفلت مني أيها القارئ مغرقا في ضحكاتك ، وتتـــأبي علي أن أنقلك إلى الجد المطلق ، لكني بيني وبين نفسي أعذرك ...... فشر البلية ما يضحك .

وأنا أتساءل معك : هل هذه السبع المثاني التي ذكرت لك أنفا قد نزلت في آية من القرآن الكريم ، أم أن المسألة هي مجرد التفلت من السنة ، ولو كان الجزاء هو الجحيم ؟.

ونعود بعد هذه الترويحة التي جاءت عرضا في كلامهم إلى اســتكمال هيآة الصلاة ، قد قلنا إن الدخول إليها بتكبيرة الإحرام يقرأ المصلـــي بعـــد ذلك ما يتيسر له من القرآن من أي سورة شاء ، والفاتحة جزء منه ، وليس باللازم قراءتها وإن كانت قراءتها تجزئ بشرط عـــدم الإصـــرار عليـــها بذاتها.

و الطريقة المثلي أن يقرأ الإنسان القرآن علي التوالي في ركعاته مبتدئا بالفاتحة وما بعدها إلي سورة الناس في ركعات متواليات .

... فهذا يحمل المصلي علي أن يحفظ القرآن ويعـــاود تلاوتـــه فـــي الصلاة حتي لا ينساه .

وبعد القراءة يركع ، والحذر كل الحذر : أن يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم ، فهذه التسبيحات قد جاءت بها السنة وهي من عمل الشيطان ، ولكنه يملأ فترة الركوع بآيات من القرآن ، ثم يعتدل من الركـــوع ، ثـــم يسجد خارا إلى الأذقان استجابة إلى قوله تعالي : ((ويخـــــرون للأذقـــان يبكون ويزيدهم خشوعا)) وحذار أن يقول في سجوده سبحان ربي الأعلي ، فتلك واردة في السنة ، والسنة هي ابن غير شرعي للإسلام ، وإنما يملأ سجوده بآيات من القرآن الكريم كما فعل في ركوعه .

ثم يرفع من السجود مكبرا ، ثم يعود مرة أخرى إلى السجود ويفعـــل في الثانية ما فعل في الأولي ، هذه صفة ركعة من الركعتين .

وفي الركعة الثانية يفعل ما فعل في الركعة الأولي ، لكنه بعد السجدة الثانية من الركعة الثانية يحذر المصلي الحذر كله أن يقترب مـــن التشـــهد فهو بدعة شيطانية كبري وضعها الشيطان بين الأمـــــة ، لينشغلـــوا فيـــها بالتسبيح والحمد لإبراهيم ومحمد بدلا من الله ، ثم بعد أن يبتعد عن هـــــذه البدعة يخرج من صلاته بأي تسبيح وتحميـــد يـــراه مناســـبا ، ولا يتـــابع المسلمين في فرية السلام ، وإنما حين تنتهي صلاتـــه بالســـجدة الثانيـــة : يخرج مباشرة ملا شئ عليه .

تلك هي هيئة الصلاة عندهم ذكرناها بعد ذكـــر تعريفـــها وشروطـــها لتكتمل صورة الصلاة في منظومة جديدة يريدون أن يخلفوا بها منظومـــــة إسلامية تعارف عليها المسلمون دهورا وأحقابا .

وهذه الجزئية من المنظومة الجديدة التي أرادوها ليست هي المحاولـــة الأولي في التاريخ الحديث علي الأقل ، وإنما هناك عشرات من مثيلاتـــها وضعت عبر التاريخ قديمة وحديثة ، وأقربها إلينا صلاة البابية والبهائيـــة

وهي صلاة لا تشبه صلاة المسلمين في شئ وأنت بصورة هذه الصلاة أمامك لا تحتاج مني إلى كلام يقال بعد أن تستحضر في ذهنك أن الصلاة هي أهم الوسائل لتجميع المسلمين وخاصة في تلك الصلوات التي يشرع لها الاجتماع في مكان واحد من نحو صلاة الجمعة التى لم تسلم من عبث هؤلاء القوم ، فهم يريدون أن يفوتوا علي المسلمين ثمرتها التي رتبها الإسلام علي أدائها ، وأهم ثمارها أن الله قد فرضها في جماعة وفي وقت يتمكن المسلمون جميعا من حضورها ، كل في بلده أو في أقرب مكان إليه تؤدي فيه الجمعه .

فجاء الهدامون الأحرار ليقولوا لنا : إنكم قد أخطأتم كما أخطأ آباؤكم من قبل إلي عصر المبعث ، حيث جعلتم أداء الجمعة خاصا بصلاة الظهيرة في حين أن الله قد طلبها (وأستغفر ربي) لتؤدي في أي وقت من أوقات يوم الجمعة وليلها ، وبذلك التحريف المقصود والإبعاد المتعمد يمكن لي ولك أن ندرك الهدف الحقيقي من هذا الاعتداء علي وقت أداء الجمعة والهدف الحقيقي هو محاولة تفريق الجمع ، وتوزيعها علي ستة أوقات هي التي يجوز أداء الجمعة فيها من الفجر إلى صلاة الليل الثانية .

هذه هي الصلاة في ثوبها الجيد كما رسمها لنا الهدامون الأحرار .

٢ - كلامهم في الصيام

والحديث عن الصيام كالحديث عن الصلاة ليس للقوم هم فيهما إلا أن يستبعدوا ما جاءت به السنة ، ولو كان يمس جوهر العبادة ، ولو كان يخالف ما توارثته الأمة من أيام النبي وإلي الآن .

ولذلك فإن الصيام عندهم سوف يخالف الصيام عند المؤمنين من وجوه عدة كما ستري ، وسوف نجد أن كلامهم فيه أشياء من الحق كثيرة كخطتهم العامة دائما أن يخلطوا حقا بباطل ليلبسوا علي المؤمنين دينهم .

فحقيقة الصيام عندهم كحقيقة الصيام عند سائر المؤمنين : إمساك عن الأكل والشرب والجماع طوال الفترة التي كلف الله عباده أن يمسكوا عن هذه الأمور فيها .

غير أن الفترة المحدودة للصوم يخالف هؤلاء الناء جميع الأمة في تحديدها ، فالشهر عندهم لا يثبت بالـــهلال ، وهـــم يســـخرون ممـــن يعتمدون علي الهلال في إثبات الرؤية ، والمطلوب عندهم أن يعتمد الناس علي الحسابات الفلكية حتي ولو غم عليهم في رويـــة الـــهلال إذ الشـــهر القمري محدد بالزمن تسعة وعشرون يوما ونصف يوم (اثنتا عشرة ساعة وأربع وأربعون دقيقة وثانيتان وثمانية من عشرة من الثانية).

وتلك مسألة قد أصبحت عندهم من بديهيات العلم ، ولا يجوز معها أن نعتمد رؤية الهلال .

وهذا أمر يبعث علي السخرية ، إذ إننا نستطيع أن نقـــول لـــهؤلاء أن الشهر قد ينتهي في منتصف يوم ويبدأ الآخر بعد انتهاء الأول ، فما الـــذي ينبغي علي المؤمن أن يفعله ، وقد قال له الحساب : و إن رمضان قد بـــدأ في وقت الضحي أو الظهيرة ، هل يعتمد نصف اليوم ويصومـــــه مخالفـــا الأعراف الشرعية ، أم يضمه علي أيام شعبان ليجبر كسره ؟

والأمر نفسه يقال عند خروج رمضان وبداية شوال ، حين يخرج رمضان في وقت الظهر أو العصر والإنسان صائم ، فيعتبر صيام هذا اليـــوم مـــن الواجبات باعتبار نصفه الأول أو اعتباره من المندوبات علي رأيهم باعتبار نصفه الثاني .

وستعلم عما قريب أنهم لا يحرمون صيام أيام العيدين .(هم يخالفوننا إذا في إثبات بدايات الشهور ونهاياتها لا لشئ إلا أنهم يريدون أن يؤكـــدوا موقفهم من السنة ، ولو أدي ذلك إلى مخالفة المنظومة العامة للإسلام .

وإني لأرجوك أن تعتبر الخلاف في إثبات الشهور بدءا ونهايـــة مـــن الأمور العارضة أو من الأمور الشكلية ، وتعال معي لنتحدث مع هـــؤلاء القول حول المدة الزمنية التي يجب علي المؤمن أن يظل فيها ممسكا عـــن الطعام والشراب والرفث إلى النساء .

إنهم يقولون بوضوح لا لبس فيه إن هذه المدة بدايتها حين يتبين للمرء الخيط الأبيض من الخيط الأسود (وهذا حق مشاحاة فيه) .

ثم يقولون أن يوم الصائم لا ينقضي بغـــروب الشمــس ، فــإن غروب الشمس لا يؤذن بدخول الليل دخولا كاملا ، إذ إن الشمس تكون في أحد منازلها مقبلة علي النصف الآخر من الأرض ، وهي لا تختفي عــن نصفها الشرقي مثلا إلا بغياب الشفق الأحمر ، وهو بداية وقت العشاء كما نقول ، والفترة من غروب الشمس إلى غياب الشفق الأحمر هي الفترة التي يتم فيها انسلاخ الليل من النهار ، وهي فترة تقابل الفترة من طلوع الفجــر بظهور الخيط الابيض من الخيط الاسود إلى أن تطل الشمس برأسها فــي وقت الصبح .

والشئ العجيب أن هؤلاء القوم قد اعتبروا الفترة من غروب الشمــس إلى غياب الشفق الأحمر من النهار لا يجوز للصائم أن يأكل فيها أو يشرب أو يرفث إلي نسائه ، ولم يعتبروا في الوقت نفسه الفترة من طلوع الفجــر بظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلي شروق الشمــس مــن الليــل بحيث يباح للإنسان فيها إن أصبح صائما أن يأكل ويشرب ويرفــث إلــي نسائه حتي مطلع الشمس .

وأنا أظن أنهم كانوا يودون لو فعلوا ذلك ، لولا أنهم يخشــون تفلــت البسطاء من أيديهم وهم أولئك النفر من الأمة الذين قد غرر بهم . الفــترة الزمنية إذا التي يمتنع فيها الأكل والشرب والرفث إلي النساء هــي تلــك الفترة الممتدة من طلوع الفجر إلي غياب الشفق الأحمر ، وهي مخالفــة لا للسنة فقط ، وإنما هي مخالفة لفعل الأمة منذ أيام النبي ، وبغير انتــهاء إن شاء الله : إلا أن تكون الأرض قد خلت ممن يقول : الله ، الله ، الله .

ولم يجد القوم سوي صوم الجمع والأعياد وأيام التشريق فأباحوا للأمة أن تصوم في أيام أعيادها ، وقالوا : إن من منع الأمــة مــن أن تصــوم إعيادها إنما مقلد لعجوز من اليهود شمطاء فارقها زوجها بالموت فحملــها علي الزهد المزيد من الوفاء .

كما أنهم لم يجدوا في مكارم الصيام إلا ليلة القدر فتحفصوا السنة فوجدوها تقول للمؤمنين : إن احتمال ليلة القدر في عجز شهور رمضـــان فهبوا واقفين ليقولوا : لا ، إنها محتملة في الشهر كله .

أمور يتحسسونها لا يقصدون منها إلا إعادة صياغة عقول المســلمين علي غير دينهم لينسجموا مع الكلمات التي نقلتها لك بدءا من كلما ســارتر الذي قال لإخوانه اليهود : لن تعيشوا في أمان مــا دام هنــاك ديــن لــه شخصيته التي تميزه ، وانتهاء بكلمات شتليه وإخوانه الذين أكدوا أن هــدم الإسلام يمكن أن يكون من خلال حمل آيات القرآن علــي غــير محملــها بحيث نقول للناس : إن صحيح القرآن ليس جديدا، وجديد القــرآن ليــس صحيحا .

هل تحب أن تسمع أو تقرأ آداب الصيام لتعرف كيف يخلــط النــاس الحق بالباطل ؟

سأستأذنك أن أنقل لك آداب الصيام بأسلوب كاتبيه من علماء هــذه الفرقــة المعتمدين عندهم ، قال قائلهم: (الصوم مشهد من المشاهد له حرمته ولــه هيبته ووقاره ، لذلك تقرر أن الأصل في نهاره الصوم وتقررت الإباحة في ليلة بالنسبة للمأكل والمشرب والرفث إلى النساء ، وينبغــي أن يتصــرف المسلم بحسب ما يقتضيه هذا المشهد بأن يسلم وجهه لربه ويصوم مخلصا له دينه فلا يسف ولا يغلو ولا يسرف في لهو أو لعب وأن يعتصم بذكر الله وبتلاوة القرآن الكريم وبالصلاة ، وأن يعتزل الناس ما استطاع إلى ذلــك سبيلا إلا من يعمر مجلسه ، بذكر الله وتدبر آياته ، وأن يكون كريما مــع أهله ينفق عليهم بسخاء في هذا الشهر المبارك وأن يطعم جاره ولو كــان غنيا ، وأن يسعي إلى الفقراء يجود عليهم بما لا يحوجهم في شهر اعتاد فيه الأسواق أن تعمر بمختلف أصناف المأكل والملبس ،مشهد يتكرر كــل عام ليتقي به المؤمنون من مشهد يوم عظيم[1] .

---

[1] لماذا القرآن ج ١ ص ١٨٢ مرجع سبق ذكره .

لسنا ندري ما الذي يقصده هذا الكاتب ؟.

لقد صرح فيما مضي أن الصوم لون من ألوان العقوبة بدليل ما ورد في الكفارات ، وأنه لون من ألوان الجهاد بدليل ما ورد فيه من فطام النفس عما تحب .

والعقوبة الجهاد يقتضيان جميعا أن يرتفع الإنسان عما لذ وطاب من أنواع الطعام والشراب .

وهو هنا يقول : علي نحو ما رأيت - أن أيام الصيام ولياليه عامرة بالأسواق الملأي بما يشتهي الإنسان ويشتاق إليه ، وأن الصائم يجب عليه أن يوسع علي عياله ، وأن يطعم الجيران فقراء وأغنياء ، وأن يشارك في هذا المهرجان الذي يتكرر كل عام .

أي تناقض هذا الذي نراه ، وأي تخبط هذا الذي نستشعره ؟.

عجب لا يقطعة ألا ما نعرفه من خلق هؤلاء الناس ، هذا الخلق الذي حملهم علي إنكار السنة ليتركوا المسلمين بغير شريعة ، ثم يقولون للماسونية العالمية كما قال بشير الدين محمود من قبل ، وكما قال غلام أحمد القادياني لليهوديه العالمية ، لقد كتبنا في مدحكم ما يملأ خمسين خزانة ، ثم كتبنا ما يقرب من ذلك في تشويش عقيدة المسلمين وشريعتهم .

((يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبي الله إلا يتم نوره ولو كره الكافرون)).

٣ - كلامهم في الحج

أما الحديث عن الحج فهو حديث يجلي مقاصد هؤلاء الناس بعض التجلية ، إذ هم كما علمنا مرارا - يقصدون إلي التخلص من السنة جملة وتفصيلا ، وقد رأوا أنهم يستطيعون من خلال الحديث عن الحج أن يؤكدوا هذه النظرية ، ويشرحوا هذه الفكرة .

فالحج عندهم هو زيارة البيت الحرام والقيام بالمناسك التي أمر الله بها ، بقطع النظر تماما عما نسب إلي النبي قولا و فعلا فيه ، حتي ولو كان ذلك قد رأه جمهرة من الحجيج في حجة الوداع ، ونقلوه إلي من وراءهم

وهم أكثر عددا ، ثم شاع بعد ذلك في الأجيال ، جيل عن جيـل بمـا [56] يخرج عن الحصر ويفوق العد .

وهذا كلام بين البطلان حين يحتكم العقل إلي أي منهج مـن منـاهج العلوم الإنسانية التي تصلح لقياس مثل هذه الأحداث واختبارها .

وفي تفاصيل الحج عندهم ما هو أشد نكرا من ذلك .

فهم يتحدثون عن الحج من حيث ميقاته الزمنـي حديثـا مسـتفيضا يحاولون من خلاله تعويم هذه الشريعة ، وجعلها ترتبط بأغراضهم حيـث يخضعونها إلي الهوي ، ويربطونها بما يحقق الأغـراض المسـتقرة فـي النفس ضد الإسلام والمسلمين .

فالميقات الزماني للحج عند المسلمين يبدأ من رؤيـة هـلال شـوال وينتهي بأيام التشريق شريطة أن يحسم الموقف كله الوقوف بعرفـة فـي اليوم التاسع من ذي الحجة ، وليلته التي هي ليلة العيد .

إما هؤلاء القوم فهم يرون أن الميقات الذي تعارفت الأمة عليه علـي هذا النحو مخالف لما جاء في القرآن ويناقضه ، نعم ، هكذا يقولون ، ولسنا ندري في أى جزء من أجزاء القرآن وقع هذا التقابل والتناقض مع ما يفعله المسلمون .

ودعك من هذا : لنرسم الصورة عن الميقات كما يقولونها .

و الميقات علي نحو ما يقولون يبدأ من هلال شوال في يومـه الأول لينتهي برؤية هلال صفر .

معني ذلك أن الميقات الزماني للحج يستغرق أربعة أشهر كاملة ،هي شوال وذو القعدة و ذو الحجة و المحرم .

وأنت تعلم أن شوالا ليس من الأشهر الحرم ، وإنما الحقيقة أن رابـع الأشهر الحرم هو رجب الفرد الذي بين جمادي وشعبان ، وقد حدده النبي بالتأكيد عليه وذكر علاماته فهو رجب : مضر وذكر موقعه بين الشـهور فهو الواقع بين جمادي وشعبان .

ولأن النبي هو الذي حدده : وقفوا منه موقف المعارضه ، وحذفوه ووضعوا مكانه : شهر شوال بغير دليل.

وإني لا أخفي عليك عجبي من هذا الموقف لأنني لا أدري من أيـــن جاءوا بالنص الأكثر احتراما من السنة عندهم ، ثم ركزوا عليه في اعتماد الأشهر الحرم وأنها هذه الأشهر المتوالية .

أنهم يقولون كما قال صاحبنا في كتابه الذي نحن بصـــدره : إن هـــذه الأشهر متوالية لتوالي أهلتها ، وهذا قول يصدق علي أية أربعـــة أشـــهر متوالية يمكن لنا أن نختارها بطريقة عشوائية .

ومن المضحكات المبكيات أن أمامهم ونبيـــهم وراء المحيطـــات فـــي مسجد توسان قد صرح في مقابلة الأربعاء مع يازن السعودي الجنسية وقد نبهناك إلى هذه المقابلة من قبل ، أقول إن إمامهم قد صرح في هذه المقابلة أن الأشهر الحرم هي : شوال و ذو القعدة و ذو الحجة و ربيع الأول ، ولم يجد نفسه في حاجة إلي القول : إن هذه الأشهر الحـــرم متواليـــة لتوالـــي أهلتها.

وهذا كله يدلك علي قصد التشويش علي العبادات ، وهي مسألة لم تعد خافية بعد ، ونعود إلي محدثنا بعد هذا الاستطراد فنقول : إن صاحبنا يري أن هذه الأشهر الأربعة هي الأشهر الحرم ، وهي ميقات للحـــج ، الحـــاج يستطيع أن يؤدي مناسكة في أي وقت ما دام الوقت منحصرا داخل هـــذه الأشهر الحرم .

وهم يسخرون من المؤمنين غاية السخرية حين يزدحمون فـــي يـــوم بعينه من السنة ، هو اليوم التاسع من ذي الحجة وليلته التى تـــأتي بعـــده ويرون أن هذا علامة جهل واتباع للنبي بغير مبرر ، إذ الحجيج يستطيعون أن يقفوا بعرفات متفرقين كل بحسب ظروفه ، وبحسب اليوم الذي يتيسر له من غير أن يلتزم بيوم معين يجتمع فيه مع إخوانه ، ويحدثون زحاما رهيبا لا يطاق .

وهنا يتبين لك القصد : إنهم يريدون أولا أن تفوت فريضة الحج الشرعية علي جميع المسلمين ، أو علي أغلبهم علي الأقل ، وهم يريـــدون ثانيا : ألا يجتمع المسلمون في صعيد واحد وفي وقت واحد ، إذ إن هـــذا الاجتماع قد يؤدي ولو بالاحتمال إلى اتحاد إرادة المسلمين ، وهو أمـــر لا يريده سادتهم أن يقع علي أي نحو من الأنحاء .

المقيات الزماني إذا عندهم ميقات مفتوح يشغل الأشهر الثلاثة في آخر العام الهجري ، وأول شهر من العام الذي يليه ، علي أن الميقات الزمـــاني وإن كان يمكن الحاج من الدخول في المنسك إلا أنه لا يلزمه بنوع معيـــن من الملابس لها شكل محدد ، ولا يلزمه بالطبع أن يجتنب أشياء كلفه النبي أن يجتنبها من نحو لبس المخيط ، وقص الأظافر ، وإزالة الشعر أوقصـــه في أي منطقة من مناطق الجسم ، واستعمال العطور ، ومبـــاشرة عقـــود الزواج لنفسه أو للغير إلى آخره .

وهذا أمر يدلك علي أن هؤلاء القوم يريدون في القصد البعيد لهم ، أن يفرغوا كل عبادة من حقيقتها ، ويفصلوها عن وظيفتها ، إنـــهم يريدونـــها عبادة بغير التزام ، وبغير تكليف بشئ ، إذ التكليفات وظيفتـــها الأولـــي : تربية الإرادة والتدريب علي صنع القرار ، واتخاذ المواقف المناسبة فـــي الأوقات المناسبة ، وهو أمر جد خطير فيما يري الذين يحركون العرائـــس علي المسرح .

و دعنا من الميقات والإحرام وتعال بنا لنتقدم قليلا في أعمـــال الحـــج لنقف عند الطواف مثلا .

والطواف عندهم دوران حول البيت بما يطلق عليـــه اســـم الـــدوران ولومرة واحدة ، أو ما يقرب منها .

أما أن يتقيد الإنسان بعدد سبعة أشواط مثلا ، وأمـــا أن يرمـــل فـــي بعضها ويسعي في البعض الآخر ، وأما أن يستلم الركنين اليمانيين وأما أن يهلل ويكبر عند أحدهما وأما أن يقبل الحجر الأسود ، أما هذا كله فهو من فعل النبي ولا دلالة عليه من القرآن ، ولذا يجب حذفه واالاســـتغناء عنـــه

واستبعاده ، ويبقي الطواف هكذا يصدق علي ما يسمي دورانا حــول البيت ، ولو بجزء مرة يقرب الحاج من تمامها بدورانه .

ومقام إبراهيم قد ورد الحديث عنه في القرآن ، والناس يعرفون هــذا المقام وقد رأوا النبي يتحدث عنه ويصلي خلفه ، وهي أمــور لا يعتمدهــا هؤلاء القوم ، بل هم يقولون إن مقام إبراهيم هو مدخل باب الكعبة ، حيث كان يجلس فيه ويصلي ، إن أراد أن يصلي لربه .

ونحن نعجب من أين جاء هؤلاء القوم بهذا المعني الذي ألصقوه بمقام إبراهيم بغير دليل أو إثبات ، أهو موجود في القرآن الكريم ؟ .

علي أية حال فهم لايريدون أن يفهموا مقام إبراهيم علي نحو ما فهمته الأمة ، وإنما يريدون أن يفهموا أو يفهموا الناس أن مقام إبراهيــم الــذي يصلي فيه الناس هو تلك البقعة من الأرض الضيقة جدا ، والمنحصرة جدا أمام باب الكعبة ، التي لا تسع إلا رجلا واحدا في جســم ســيدنا إبراهيــم يصلي فيها ويجلس .

بالله كم عسروا وضيقوا حتي لايتمكن الناس من أداء شعائرهم فتفوت عليهم .

وأنا أريدك أن تحتفظ بهذا الموقف الذي جنح الناس فيه إلي التضييــق علي الحجيج حتي لا يتمكنوا من الفعل إلي أن أصل بك إلي عرفات لتري أنهم قد وسعوا علي الحجيج جدا كي يتفلت منهم هذا الفعل ، إذ المهم عند القوم أن يفوت الناس إداء مناسكهم ، فإن فاتت بالتضييق فلا بــأس ، وإن فاتت بالتوسعة فلا بأس ، الغاية تبرر كل وسيلة .

والركن الذي اعتمده بعض المسلمين وهو السعي بين الصفا والمــروة اعتبره هؤلاء الناس من قبيل المباحات ، أو علي الأقل من باب الأمر الذي يثاب عليه فاعله ولا يعاقب تاركه .

ولست أدري ماذا يطلق هؤلاء القوم علي مثل هذه الحال من الأسماء ، لكن الذي أدريه من أقوالهم التي صرحوا بها هو أن السعي بين الصفــا والمروة ليس كما يعرفه المسلمون سعيا بين هذين الجبلين يصعــد الحــاج

علي أحدهما ، ثم ينصب إلي بطن الوادي قاصدا الآخر ، فإن وصـــل إليه احتسبت له مرة من مرات السعي ، ثم يظل يتابع مشيه بينهما : هكــذا سبع مرات ، يبدأ بما بدأ الله به (الصفا) وينتهي بما انتهي الله به (المروة) علي أن يهرول بين نقطتين معينتين في مسعاه ، ويسعي فيما قبلهما وما بعدهما .

القوم لا يوافقون الأمة علي ذلك ، وإنما يقولون : السعي بين الصفـــا والمروه غير وراد إلا في السنة وفعل النبي ، وهذا ينبغي أن نتخفف منـــه غزيمة وعزما .

أما الكيفية التي ينبغي أن نتبعها فــهي : أن نطــوف خــارج الصفــا والمروه حولهما ، وعليه فإن البناء القائم علي الجبلين الآن خطأ شرعـــي ينبغي إصلاحة لأنه يعوق الطواف حول الصفا والمروه ، ويجعل الحـــاج يسعي بينهما.

وكأني بهم يقولون : حتي لو بقي الحال علي ما هو عليه ، فإن ذلـــك غير مزعج لأن الطواف حول الصفا والمروه من المكملات في الحج ، بل من التطوع : إن فعل فلا بأس ، وإن اجتنب فلا حرج .

الآن وقد وصل الحديث بي وبك إلي الوقوف بعرفـــة ، وهــو جبـل معروف يفصله عن مكه حوالي ثلاثون كيلو مترا ، وهو ليس من الحـــرم وإنما هو من الحل ، عرفه المسلمون علي أنه منسك ، وهم يقفون به بعـــد زوال الشمس يوم عرفة ، ويمتد الوقت المصرح به شرعا إلي طلوع فجر يوم العيد ، وما بين هذين الوقتين يجزئ الحاج أن يقف بعرفة فيه ، فـــإن فاته الوقوف في هذا الوقت فقد فاته الحج ، حيــث قــال النبــي ((الحــج عرفة)).

وقت محصور وضيق : قد وجد القوم بغيتهم فيه فأرادوهـــا فرصــه ليخرجوا الحجيج عن أداء فريضتهم ، أو عن أداء ما تطوعوا به بالتوسيع في هذا الزمان وفتحه حتي يشمل قريبا من مائة وعشرين يوما أو أقل منها قليلا ، هي تلك الأيام التي يضمها الأشهر الحرم الأربعة .

ويوم عرفة كما يقولون بتعبيرهم : يوم مفتوح ، لم يكلف الله فيه عباده بشئ معين ، وإنما تركهم هكذا في يوم يفيضون فيه ، فهم يفيضون فيه من القرآن الكريم تلاوة إن أرادوا ، وهم يفيضون فيه بالصلاة ركوعا وسجودا إن شاءوا ، وهم يفيضون فيه بالذكر شريطة أن يكون الذكر من القرآن : إن رغبوا في ذلك ، يوم مفتوح إذا يتسابق الناس فيه في التقرب إلي الله ، وهو يوم غير معين ، والمهم أن يري الله عز وجل من عباده أنهم يتسابقون .

ولعلك مازلت تذكر أني نبهتك عند الصلاة في مقام إبراهيم أن القوم يهتمون بتضييق الواسع ، وتوسيع المحدد من الزمان والمكان إذا رأوا في ذلك فرصه لتفويت العبادة ، وأنت من الذكاء بعد ذلك بحيث لم يعد يفوتك هذا القصد من هؤلاء فيما سنعرض عليك من أحوال .

وبعد الوقوف بعرفة يأتي المرور بالمزدلفة والمبيت بها ، ولمزدلفة كما نعرفها لها أسماء عدة فهي : المشعر الحرام وهي : جمع ، وهي : المزدلفة ، اسماء متعددة لمسمي واحد ، متسع الأرجاء ، وقد وقف النبي عليه السلام بجزء منه وقال : ((وقفت هنا والمزدلفة كلها مشعر)).

والمكان هنا متسع كما تري ، فهل يتركون المتسع علي اتساعه ؟

عادتهم أنهم لا يفعلون كما علمت ، ولذا فقد قالوا : إن المشعر مسجد غير مسقوف ، وهو هذا المسجد الذي بني بعد رسول الله بسنوات طويلة وقد أوجبوا علي المسلمين جميعا أن يقفوا بهذا المسجد الذي لا يتسع إلا لعدة مئات ، رغبة منهم في تفويت العبادة علي عباد الله كما علمت .

وقد أوجبوا علي الناس أن يقيموا هنا في المزدلفة ثلاثة أيام ، أو زهاءها لا يبرحون هذا المكان ولا يغادرونه ، ولا أدري كما أظنك لا تدري من أين للقوم بهذه الأيام .

ما لنا وهذه التساؤلات ومثلها نقف عندها ؟

إننا سنعود بك لنحدثك عن مني يوم النحر ، ويومين أو ثلاثة أيام بعده فيهن رمي الجمرات ، وفيهن الذبح والتقرب بالهدي ، وفيهن المبيت الواجب في

مني ، وإن القوم لينظرون إلي هذا الجزء من الحج علي انـــه بدعــة شيطانية القي بها الشيطان في روع النبي أو في تاريخ الأمة ، ولا يجـــوز لأحد أن يتبع بدعة شيطانية حتي ولو توارثتها الأمة علي منهج و أســلوب التواتر .

بقي للمرء أن يحل من إحرامه .

وأنا لست أدري ما الإحرام الذي يتحلل الإنسان منه عند هؤلاء ؟

إن التحلل لا يكون إلا من تقييد وحظر ، وليس هناك شئ فيما يـــري هؤلاء كان محظورا علي الحاج أن يفعله ، ولذا فقد جـــاء التحلـــل أمـــرا مضحكا.

إن التحلل عندهم يعني أن يذهب المرء إلي الحلاق ، أو من نعرفه في بلادنا باسم (المزين) واسم صاحب المهنه كما نعرفه نحن يصور مقصد هؤلاء أكثر مما يصوره الاسم الذي يطلقه عليه غيرنا ، إنـــهم يقولـــون إن الحجيج ينبغي أن يذهبوا إلي المزين ليجعلهم في أكمل زينة وفـــي أحســـن الأوضاع التي يقابلون بها أهليهم وذويهم بعد الحج ، ولم لا ؟!

أو ليس له أطفال ينتظرونه ويقتدون به في زينته وملبسه ؟!

أو ليست له زوجة قد طال بها الأمد وبرحت بها الأشواق وهـــي الآن قـــد استعدت لاستقباله وازينت ؟!

إن المناسب أن يقبل هذا الحاج عليهم بملبس نظيف وشعر مرتـــب ووجـــه حليق ، بدل من أن يأتيهم وعليه وعثاء السفر وغبرة الطريق ، هـــذا هـــو منسك الحج كما رآه القوم ، اختصرته لك من كلامهم اختصارا ، وحاولت ألا أشق عليك بقسوة التعبير حتي لا أضرم صدرك نارا ، وأنت من خلال ما عرضت عليك قد أدركت بما لا شك عندي فيه : أن القوم ماقصدوا إلا إلي تضييع شرع الله ، ووضع شرع آخر مكانه ، لا يربي فردا ولا يبني أمة .

٤ – العمرة

ويقترن بالحديث عن الحج : الحديث عن العمرة .

وهي عند جميع المسلمين : عبادة مستقلة لـــها مناســكها ولـــها أسلوب أدائها وقد تدخل في الحج إن أراد الحاج أن يقرنها به .

ولا يرتضي القوم أن يكون للمسلمين نسك يسمي : العمرة ، مـــا دام بالإمكان أن ينفضوا اليد منها ، وهم يظنون أنهم قادرون علي ذلك . رأي هؤلاء الذين أنكروا السنة أنه لا يجوز تقليد النبي في كل مـــا أداه طــوال حياته من مناسك للعمرة ، والناس أعــداء وصحابــة وأتبــاع ينظــرون ويشاهدون بأعداد تخرج عن الحصر .

إنهم ينكرون ما قام به النبي ويعتبرون أن هذا من قبيل الظـــن ، وأن الظن لا يغني من الحق شيئا .

يالله للمؤرخين والمشتغلين بعلوم التاريخ ، لقد ضربوا في أعـــز مـــا يملكون من مناهج ، وهو منهج الرواية المنقولة بالتواتر .

ويا لله للإنسانية ، فقد ضاع تراثها وسجل تجاربها علي يـــد هــؤلاء المنكرين للسنة حيث سدوا عليهم كل باب ممكن ينفذ إليهم الحدث منه .

ولنترك القوم يفعلون بالإنسانية وتراثها ما يشاءون ، لنتأمل حديثـــهم حول نسك العمرة عند المسلمين .

لقد تشبثوا جميعا بالكلمة (عمرة) ليقولوا للمسلمين : إن العمرة هـــي من العمارة ومنها الإعمار ، هذه المادة في أحسن حالاتها لا تدل إلا علـــي أنه يجب علينا أن نعمر المساجد كلها علي أي أرض وجدت وفي أي زمان صادفناها ، ونعمرها بأدوات النظافة كالفرش وغير ذلك ، ونعمرها بالذكر والصلاة ، ونعمرها بالسرج ووسائل الإضاءة ، المـــهم أن نعمرهـــا بـــأي وسيلة من وسائل التعمير .

والمسجد الحرام هو أقدم المساجد وأولها بـــالإطلاق ، فـــهو أولاهـــا بالتعمير علي المعني الذي ذكرناه ، بحيث يكون التعمـــير شـــاملا لتشييـــد والنظافة والإضاءة والعبادة ، ويمكن أن يدخل في تعمير المسجد الحرام : الطواف والسعي والصلاة أمام مقام إبراهيم .

أما أن تكون هناك عمرة لها أركان مخصوصة ، ولها واجبات وسنن معينة : فهذا أمر لم يرد به نص قرآني ، وقصاري القول أنه ... وردت به السنة النبوية ، وتلك مسألة لا نقر المسلمين عليها . (الحج والعمرة إذاً قد استهدفهما القوم فمسخوهما مسخاً ، وفرغوا كل عبادة منها من محتواها ، وتركوها هكذا نوعاً من الشقشقة الفارغة التي لا تحمل بين ثناياها معني ولا في طياتها عمقا .

فهل لديهم شئ مقبول يقولونه فيما عدا ذلك من الأركان؟! [1]

٥ – حديثهم في الزكاة

الزكاة في الإسلام جزء من النظام المالي العام .

والنظام المالي العام في الإسلام : له مذهبه الشامل ، وله قوانينه الجزئية التي تتصل بالحوادث الواقعية .

ولسنا هنا في مجال الحديث عن النظام الاقتصادي في الإسلام ، وإنما نحن بصدد الحديث عن الزكاة باعتبارها جزءاً من هذا النظام .

وما نحب أن نقوله في الزكاة هو : أن الله عز وجل حين وضعها لم يضعها لصالح الفقير وحده ، وإنما وضعها نظاما يوازن بين الفقير والغني والمال الدائر في حركة الاقتصاد العام .

وإن نظاماً كهذا يحتفظ بالموزانات بين أطراف عدة لابد له من حساب دقيق ، وأسلوب منضبط حتي لا يطغي فيه طرف علي طرف ، وحتي تكون الحقوق مرعية ، والتوازن ظاهراً لا سترة به .

فمن حيث المنفق أو المزكي نجد المنظومة الإسلامية فيما يتعلق بالزكاة منسجمة غاية الانسجام مع مثيلتها من أجزاء التشريع ، لا تناقض فيها ولا خللاً ، ولا ارتباك فيها ولا ميلاً .

---

[1] راجع البيان بالقرآن ص ٨٣ وما بعدها ، مقابله مع يازن السعدون ، سعودي الجنسية الأربعاء ٥ ديسمبر ١٩٨٩ م ، وقد سبقت الإشارة إليهما .

فهي هنا كما هو الشأن في كل موضع – تحافظ علي حق الفقير كما تحافظ علي إرادة الغني وغرائزه ، ولذا فإنك تجد التشريـــع المتصـــل بالزكاة يمر بمرحلتين :

إحدهما جبرية وهي ربع العشر في أموال التجارة والنقدين ، وفي كل ما يحمل علي النقدين ويقوم بهما وهو العشر في الـــزروع والثمـــار ، إذا خرجت الزروع والثمار بغير مؤنه ، وهو نصف العشر فيهما إذا خرجتـــا بكلفة ومؤنة ، وقل مثل ذلك فيما حدده الله في الإبل والبقر والغنم ، وغير ذلك مما جاءت الشريعة بتحديده .

وهذا القسم من أقسام الزكاة يخرجه المؤمن فريضة واجبة عليه ، وهو الحد الأدني الواجب علي الأغنياء ، أوجبه الشرع في أموالهم حماية للفقير من شح محتمل في نفس الغني .

و أما ثاني القسمين فهو القسم الذي يخرجه الإنسان باختياره ، وهـــو قسم لم يحدده الشرع ، ولم يوجب فيه قدراً معيناً ، وإنما تركـــه احترامـــاً لإرادة الغني ، وتقديراته الشخصيـــة اســـتجلاباً لرضـــا الله عـــز وجـــل واستنهاضاً للجماعة من كبوتها العارضة ، ومساعدة للأفراد علي اجتيـــاز ظروف يمرون عارضة أو دائمة .

وبهذين القسمين تجد هذا التوازن الدقيق بين طرفين ، الغني من جهة ، والفقير من جهة ، فلم يترك الله عز وجل الفقير وظروفه لعبث الأهـــواء وتقديرات الأغنياء ، وقد يكون منهم الشحيح والكريم .

والشح في بعض الأحيان أملك للنفس ، يطوعها حيث يشاء كما يريـــد فلم يشأ الله أن يربط ظروف الفقراء بعبث أرادات الأغنياء ، وفي الوقـــت نفسه لم يشأ الله عز وجل أن يهدر حرية الإرادة عند الغني فجعل له جزءا يتصرف فيه بإرادته غير مقيد بوقت ، وغير مقيد بنصاب ، وغير مقيـــد بقدر يبذله الغني إلي إخوانه من الفقراء .

أما الطرف الثالث ، الذي يجب رعايته هنا فهو هذا المال الدائر فـــي الحركة الاقتصادية .

وهذا المال الدائر يحتاج هو الآخر إلي رعاية ، فقديماً قالوا :
- القائد الحصيف كراعي الغنم الجيد يجز ولا ينتف - .
والمال الدائر في الإسلام لا بد وأن يبقي دائراً يؤتي إنتاجه و يؤتي حصاده ، ومن الخطأ والخطل معاً أن نخرج من هذا المال بغير حساب دقيق ، بل إن أقل الدول تحضراً تقوم الآن علي عمل ميزانيات تحسب من خلالها الدخل والمنصرف ، ورأس المال الدائر في الحركة الاقتصادية بل إننا لنحمل أرباب البيوت وربابتها ورؤساء العائلات والمسئولين عن الانفاق فيها أن يوازنوا بدقة بين الدخل المنصرف حتى يعيشوا في أمن اقتصادي .
والاقتصاد الذي يعمل لا يكفيه من عام ، حتى يتمكن رب المال من حسابات المكسب والخسارة فيه ، إذ هو لا يتمكن من عمل موازنات يومية ، ولو أنه تمكن من ذلك لكان الأمر بالنسبة إليه جد عسير .
ومن جهة أخرى فإن المال له نسبة ربح تدور في وسط معقول في العالم كله أقلها في السلامة ستة بالمائة ، وأعلاها في حالة الاستقرار عشرة أو اثنتا عشرة بالمائة ، فإن زادت النسبة عن ذلك احتاج الاقتصاد كله إلي مراجعة ، وإن قلت النسبة عنّ الحد الأدني احتاج الاقتصاد إلي إعادة النظر .
وصاحب المال عليه التزامات ومنها الزكاة ، فلو لم تكن الزكاة مسماة بقدر معين لا رتبكت حسابات المالك وطغي بعض الجوانب عنده علي جوانب أخرى .
لكي يكون المالك والفقير ورأس المال في حالة من التوازن لا خلل فيها فإنه لابد وأن يكون هناك حد أدني لا تخرج الزكاة في مال الأغنياء وجوباً إلا إذا وصل المال إلي هذا الحد الأدني وتجاوزه ، ولابد كذلك أن تكون هناك دورة زمنية يقف المرء بعدها ليراجع حساباته في المكسب و الخسارة ، ولتكن هذه المدة الزمنية حولاً كاملاً ، ولا بد كذلك أن يكون هناك قدر مسمي ، هذا القدر لا يستغرق نسبة الربح كاملة ، وإنما يأخذ منها ويبقي ما يحتاج إليه الغني في نفقاته الخاصة ، وما يحتاج إليه في

صيانة رأس المال الدائر ، ولا بد أن يكون هناك احـــترام لحاجـات الفقير ، والصيانة لها حيث لا تبقي عبثاً في يد الأغنياء وأربــاب الأمـوال ولا بد وأن يكون هناك احترام لإرادة الغني الحرة التى يستمتع بها عندمـا يكون هو صانع قراره .

ومن أجل هذه اللابديات جميعا ، وجدنا الشـرع الحكيـم لا يفـرض الزكاة إلا إذا بلغ المال النصاب المحدد شرعاً ، ووجدناه كذلك لا يوجـب الزكاة إلا إذا حال الحول ، ونجد الشرع أيضاً قد أوجب في مال الغني حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، صيانة لحاجتهما من عبـث العـابثين ، ونجـد الشرع الحكيم قد ترك جزءا اختياريا سماه الصدقة يخرجه الغني من مالـه الذي يملكه في الوقت الذي يريده وبالقدر الذي يرتضيه إحترامـا لإرادتـه وإطلاقا لسبحاته في رضا ربه ، وتقوية لرغباته في الحفـاظ علـي ذوي الحاجات من أمته .

وهذا النظام نفسه ظاهر في غير النقدين وأموال التجارة من نحو زكاة الزروع والثمار ، ومن نحو زكاة الإبل والأغنام والأبقار .

نظام بديع منضبط بالأرقام يوازن بين الحاجات و المشاعر والإرادات والمال الدائر من غير طغيان لعنصر منها علي عنصر . ومنظومة الإسلام تلك : قد وقف خلفها حشد عظيم من النصوص يحمي بنيتها ، ويربط بيـن عناصرها ، نصوص قد جاء بها الوحي بنوعيه ، الوحـي المقـروء فـي القرآن الكريم ، والوحي الذي عبر عنه النبي بقوله وفعله وتقريراته فيمـا يعرف بالسنة .

و حاول القوم الذين أنكروا السنة أن يخترقوا هذا النظام البديع وقرروا أن يسحبوا حجر الزاوية منه ، ليظهروه أمام العالم بناءا مهتزا متهالكا ، لا يصمد حتي أمام نقر الطيور أو هبوب الرياح ، فكان ما كان مما صنعـوه وأراقوا الكثير من المداد لتحبير الصفحات من أجل إثباته .

وما ذكروه كثير منه :

١ - أنهم أرادوا أن يحدثوا خللا في النظـــام الحســـابي للزكـــاة ليؤثروا علي النظام العام والخاص ، بعد أن يتمكنوا من تحويله إلى أمـــر ارتجالي لا يعرف فيه ربح من خسارة ولا يعرف فيه مقدار ســـيره إلـــي الأمام أو تراجعه إلي الخلف ، فقالوا : إن الزكاة ليس فيها شئ مفـــروض مسمي من حيث القيمة ، إذ إن ما يعرفه المسلمون اليوم ومن أيـــام النبـــي وعبر العصور : ما هو إلا بدعة ابتدعوها ما كتبها الله عليهم ، فجاء ربـــع العشر في النقدين والتجارة ، وجاء العشر بالزروع والثمار بغـــير مؤنـــة وجاء نصف العشر فيهما بمؤنة إلي غير ذلك ، أسماء ســـماها المســـلمون والنبي معهم بغير سلطان أتاهم من الوحي أو التكليف ، العجب العاجب أن النبي قد رأي ذلك يصنع وأقر الناس عليه ولم يعلق ، ورب العـــزة تركـــه هكذا يقر أصحابه ، ولم يصحح له مسيرته .

سبحانك هذا بهتان عظيم .

كما قالوا إن الزكاة ليس فيها شئ اسمه الحد الأدني أو النصاب ، وإن ما سمعه المسلمون مما كان يفعله الأجداد وتوارثوه منهم من أن الزكـــاة لا تجب إلا إذا بلغ رأس المال النصاب : أمر مختلق ومفتري ، افـــتراه مـــن افتراه وألحقه بالإسلام من ألحقه ، والإسلام لا علاقة له به .

وأنت خبير أن أقل الناس اليوم ثقافة يعلم أن المال لا يتأتي له أن يدور في حلبة المعترك الاقتصادي ، وهو مثقل بتبعات تلاحقة تستقطع منه فـــي شكل ضريبة أو زكاة ، وإنما يتمكن المال من الدوران : إذا كان من القوة بحيث يستطيع أن يغطي نفقاته ، وأن يكون هناك فائض يغطي متطلباتـــه وتلك مسألة قد أصبحت من البداهة ، بحيث لا تحتاج إلي كثير تفكير ، وأنا أظن أن أصحابنا يعلمون ذلك ، ولكنها إرادة الهدم لنظام يملك القدرة علي الانتشار ، وشهوة التخلص من شريعة لا ترضي من القيـــادة إلا موضـــع الصدر ،وهم يقولون إنه لا يشترط أن يحول الحول حتـــي تجـــب الزكـــاة ويلوذون بالحائط وهم يتكلمون كالوسواس الخناس ويقولون : حاجات الفقير ملحة فهل ينتظر الفقير حتى يحول الحول .

ولست أدري أنضحك أم نبكي أم نترك الضحكات تمتزج بالدموع علي أناس يقولون وهم يظنون أن أصواتهم ستذهب بغير رجع للصدي كأنهم يقولون في موتي ويتحدثون في عدم .

إن الصغير والكبير يعلم أن كل واحد من أرباب المال له نقطة بداية بدأ العمل عندها ، فهناك من بدأ عمله من أول العام ، وهناك من بدأ عمله بعده بيومين ، وهناك من بدأ عمله بعد شهر وهكذا ، وكل إنسان من الأغنياء له وحدة حساب زمنية تخصة ، وإذا ما التزمنا بنظام الإسلام سنجد الأغنياء يخرجون زكاتهم بالنقدين والتجارة ، وفي الأبقار والأغنام والجمال في أوقات متوالية علي مدار العام .

بالإضافة إلي هذه المواسم للزروع والثمار وغيرهما تعطي منها النفقات عند حصادها ، وكذلك تخرج الزكاة في ذلك الوقت .

ولعلك أدركت معي من هذه النقطة أنهم قد أرادوا أن يوجهوا ضربة للمال في دورانه لعلها تنجح في إصابة الاقتصاد الإسلامي بالخلل أو علي الأقل بالترنح ريثما يفكرون .

٢ - ثم هم مرة أخرى يتأملون المنظومة الإسلامية في الزكاة : يبحثون عن حجر آخر في زاوية أخرى ، فكان وقوفهم هذه المرة عند المزكي يغازلون عواطفه ويداعبون خياله ، يعبثون بغرائزه .

إنهم يقولون للأغنياء جميعا ، لقد وضع الله المعيار في أيديكم ، فأنتم أصحاب الأموال ، وأنتم الذين تقدرون حاجات المجتمع والأمة ، وفي أيديكم وحدكم هذا النبض نبض الحياة للأفراد والجماعات ، فإن وجدتم النبض بطيئا دفعتم في شرايين الأفراد و الجماعات عنصر الحياة ، وإن وجدتموه سريعا عاليا تحكمتم في الموارد بما يصلح الأمة ، ويجعلها متزنة بغير طغيان وفي غير ضعف .

وما توارثته الأمة من معايير حسابية في مسألة الزكاة عملية معقدة جدا ، هذا فضلا عن أنها لا تحترم حرية الإرادة فيكم .

ويستمر القوم في قصيدة الغزل إلي منتهاها إن كان للخيال منتهي ويستمرون في العزف علي قيثارة ممقوته إلي غايتها إن كان لأحلام اليقظة غاية ، يفعلون هذا كله ، وهم يعلمون أن إرادة الإنسان قد تضعــف ، وأن حماس الإنسان قد يقل ، وأن ضمير المرء هو ابن بيئته ، وحاجات الفقــير لا ترحم وآلام المسكين مبرحة ، ودمعات اليتيم لا تجد من يجففها .

أي مقياس هذا الذي يضع مصير الأمة في يد إرادات غــير مأمونــة العواقب ، وفي يد رغبات قد تضعف عن القيام بواجباتها ؟! ما أجمــل أن يكون هناك نظام يفرض علي الأغنياء ما يسد الحاجات الضروريــة عنــد الفقراء ، ويترك الباب مفتوحا لحرية الإرادة أن تفعل ما تشاء .

٣ – ثم بحث القوم عن زاوية ثالثة لتقويض هذه المنظومة الإسلامية في الزكاة فلاذوا بمذهبهم الأصيل وخاصة بعد أن درس وعمق في أخص خواصه ، وهذا المذهب الأصيل يدور كله حول التعميم والتقويم ، بحيث لا يبقي للدين شخصية وهوية ، وهذا المبدأ بعد أن كان ساذجا بسيطا قد عمق الآن ودرس دراسة نفسية وإعلامية .

في الماضي كانت المبادئ الكبري تضرب بالحرب والمواجهــة ، أو بالكيد والخديعة .

وفي هذا الزمان قد ابتكــرت أســاليب أخــرى ، وأهمــها الموافقــة والمصاحبة بحيث يوافق العدو عدوه ، إلي إن يأنس له ثم يستل منه شيئــا فشيئا أهم مقومات شخصيته ، فيظهر أمام الناس مسخا شائها ، لا شخصية له ، ولا هوية يملكها ، ولا يملك مميزا يميزه عن غيره .

وهذه الخطة الأخيرة تطبق الآن علي الإسلام بعناية ، فالإسلام عندهم دين خير وبركة ، ودين فضل وتقدم ، وديــن إنســانيات يراعــي الفــرد والجماعات ، ودين يربط الإنسان بربه ، وهو دين يعلي من شأن الــروح ويرفع من كرامة النفس ، وهو دين ، وهو دين وهو دين ....

هذه الكلمات وأمثالها : لو وصف بها الدين المسيحي لصلحــت ولــو وصف بها الدين اليهودي : لصلحت ، ولو وصف بها حتى الدين البرهمي

لصلحت ، بل لو وصفت بها الديانات المصرية القديمة ، لصلحت ولما وجدت حرجا .

وهذه الكلمات حين يوصف بها الإسلام مثلا : لا يكون له مميز يميزه عن غيره ، وهذا قصد مقصود للمسخ والتشويه ، وهي خطة جديدة ابتكرها من ابتكرها لتكون إلي جوار الخطة الآخرى الساخنة ، حتي يحارب الإسلام بالأمرين معا ، بالتسخين إلي حد الاحتراق في حرب المواجهة وبالتبريد إلي حد الفتور ونسيان الذات في حرب الخداع .

وليت المسلمين يعلمون : أن الذي يعاقب بالنار المحرقة وبالزمهرير البارد هو : الله عز وجل عقابا لا حربا ، حتى يعلي من قدر الأخلاق ويرفع من شأن القيم .

و أنت تتأمل خمسين صحيفة في كتاب واحد ، هو هذا الكتاب الذي نحن بصدره ، وأقل منها لكنه يماثلها في الهدف في الكتب الأخرى التي تخدم نفس الغاية ، فلا نجد إلا عبارات عامة فضفاضة ، ولا نجد إلا مغازلة للعواطف ، ولا نجد إلا جرأة علي النص ، ولا نجد إلا جرأة علي السلف ، ولا نجد إلا إهدارا متعمدا لمناهج التاريخ وخدشا مقصودا لمشاعر المؤرخين .[1]

و ياليت قومي يعلمون !!

٦ - الزواج

فيما سبق تناولنا نماذج مما قاله هؤلاء ، يحاولون أن يغيروا به شريعة الله في العبادات التي يمارسها الفرد خاصة بينه وبين ربه ، من نحو الصلاة والزكاة والصيام والحج .

وكنا نظن أن القوم سيدخلون علي نظام المعاملات ، ومجال الاقتصاد وهو مجال ثري ، وهو في نفس الوقت في غاية الوعورة ، تعامله بالدرجة الأولي مع الأرقام ، ثم مع النظريات المحددة المعالم .

---

[1] راجع : لماذ القرآن ص ٢٥١ وما بعدها ، مرجع سبق ذكره – ثم انظر البيان بالقرآن .

كنا نظن أن القوم سيدخلون هذا المجال ، وكنا علي شوق شديـــد لمتابعتهم فيه لنري ماذا يفعلون ؟ ولكنهم دخلوا جحر ضب خرب وعلمـــوا كيف يخرجون منه ، وهم لا يشعرون بأنهم قصروا أو زاغوا .

لقد تركوا منظومتهم إذا من غير حديث ولو حديثا كاذبا عـــن النظـــام الاقتصادي في الإسلام ، ولسنا ندري بماذا سيجيبون إذا سئلوا عن ســـبب تركهم لهذا المجال ، فهم بين أمرين : إما أن يتهموا الإسلام بأنه لم يستطع أن يدخل مجالا كهذا ، إذ لا صلة له به ولا قدرة له علي معالجته ، وإمـــا أن يعتمدوا نصوص السنة إلي جوار القرآن ، ليصوروا من خلالها نظامـــا بديعا في الاقتصاد الإسلامي .

مالنا وهذا المجال الذي تركوه وزاغوا عنه زوغانا غير مفهوم السبب أو العلة ، نتحدث نحن فيه ؟

كان الأمر الدي تحدثوا فيه بعد هو الحديث عن الزواج .

والزواج علاقة بين رجل وامرأة بينهما أولاد ، وستستمر هذه العلاقة بغير حدود إلا أن يشاء الله .

والرجل في الأسرة له مسئوليات مادية وأدبية .

والمرأة كذلك في الأسرة لها مسئولياتها المادية والأدبية .

والأولاد بين هؤلاء نبت صغير ينمو ويترعرع من خـــلال ضوابـــط وقوانين .

والرجل إنسان له عواطفه وأشواقه وعقله وسلوكه ، والمـــرأة إنســـان آخر له عواطفه وأشواقه وعقله وسلوكه .

وكل واحد من الاثنين قد ربي في بيئة مختلفة تمام الاختـــلاف عـــن البيئة الأخرى التى ربي فيها صاحبه .

والزوجة والزوج مع هذا الاختلاف في الأشواق والتفكير والسلوك قد جمع الله بينهما بعقد متميز عن سائر العقود ، له قواعده ، وله أسسه وله ما يترتب عليه من آثار .

يدخل الإسلام علي هذا الجانب من جوانب الإنسان دخولا جـــادا بغير هزل ، ويتصدي له تصديا قويا بغير تفريط ، يضع القواعد المنظمـــة لهذا الجانب بما يشمل العموميات والتفاصيل .

وهذا التصدي من الإسلام لهذا الجانب من حياة الإنسان بما يتميز بـــه من جدة وصرامة ، لعله قد أورث هؤلاء القوم شنآنا علي الإسلام يجـــدون مرارته في حلوقهم ، أو لعله قد ألقي في عيونهم أذي جعلها لا تبصـــر ولا تري ، فلجأوا إلي أسلوب لا يجيدون في مثل هذا الموقف غـــيره ، وهـــو أسلوب التعميم و التسطيح والانفلات من القيد ، والتخلص مـــن التزامـــات المبادئ .

فهم يقولون أن الإسلام يبدأ الحياة الزوجية بالخطبة ، وهـــذا صحيـــح لكنهم يفهمون الخطبة لونا آخر من الإباحية بين الذكـــر والأنثـــي مـــهما وضعوا له من العبارات مما يظنون أنها تخفي آثاره ، والشئ العجيب أنهم ينسبون هذه الإباحية إلي الله عز وجل ويقولون إنه هو الذي شرعها وأمر بها .

وكأني بالقوم وهم يسخرون من قول النبي عليه السلام : ((ما اجتمع رجل وامرأة في مكان إلا وكان الشيطان ثالثهما)) يقولون : ((اياكم ومثل هذا القول والتفتوا إلي ما هو أفضل منه ، والأفضل منه أن الرجل والمرأة أو الذكر والأنثي في حالة الخطبة مباح لهم الخلـــوة والمخالطـــة الشديـــدة والقرب التام إلي أن تختلط الأنفاس حتى يتعرف كل إنسان علي صاحبه)) ويقولون : إنه مهما ترتب علي ذلك من آثار فهو أفضل بكثير من زوجين جمع بينهما عقد ولم يتعرف كل واحد منهما علي صاحبه فوقعا في الشقاق والخلاف ، بحيث ينتهي الأمر إلي الطلاق والفراق .

وأي إباحية كتلك الإباحية التى تكون بين اثنين يعـــدان إلـــي الحيـــاة زوجية ستكون مأوي لأطفال يراد لهم أن يحملوا في المستقبل مسئولية أمة. الغرض هنا واضح ومكشوف .

ثم تعال معي إلي كيفية العبث بالنصوص ، فالله عز وجل قد أباح كما يقولون تعدد الزوجات ، لكن لا يجوز للرجل المتزوج أن يتزوج بأخرى إلا إذا كانت هذه الأخرى أما لأيتام قد تولي هو تربيتهم ، وخاف ألا يعدل بين الأيتام فيجوز له حينئذ أن يتزوج بأمهم ليتحقق العدل فيهم .

أي عدل سخيف هذا الذي يقوم علي الرفث إلي النساء ، وما العلاقة بين العدل في اليتامي والزواج بأم اليتامي ، إنه عبث في فهم النص وعبث بعقول الأمة ، وعبث بأموالها حين سخرت لطبع ونشر مثل هذا الكلام .

ثم هناك حالة أخرى لم تكن في ذهن صاحبنا حين تناول القلم ليكتب في تعدد الزوجات ، ولكنها فكرة طرأت عليه وهو يكتب فـي مـا ينكح الرجال بملك اليمين .

والتاريخ القريب شاهد بأنه كان هناك في الماضي حرائر وأرقاء والقرآن كما جاء ليشرع لحالات التحضر ، وكما جاء يرعى المثل ، لا يمكن بحال أن يترك الواقع في همجيته إلي أن يتحول الواقع إلي المثال إنما هو يشرع له ويعبر به من هذا الواقع الأليم إلي أن يتحقق المثال العظيم .

تلك مسائل يقرها العقل فيّ أقل صورة ، وفي أبسط حالاته ، غير أن صاحبنا يعبث بالنص ، كما يعبث بالنص إخوانه ورفقاؤه فيقول : إنه ليس هناك شئ اسمه : إماء أو رقيق ، ليس هناك رقيق الآن ، كما أنه لم يكن هناك رقيق في التاريخ ، ولا يعقل أن يشرع الله لشئ ليس موجودا (سبحانك ربي) ومن أجل ذلك يجب أن نفهم (وهذا كلامه) القرآن علي وجهه الصحيح حين يتحدث القرآن عن النكاح بملك اليمين .

والوجه الصحيح الذي ينبغي أن نفهم عليه هذا النوع من النكاح لا يخلص لنا إلا إذا وقفنا علي المعني الحقيقي لملك اليمين ، المعني الحقيقي لملك اليمين هو : أن هناك أناسا لا مأوي لهم ولا بيت ولا مسكن شردتهم الكوارث ، أو عبثت بهم الزلازل ، أو خر عليهم السقف من فوقهم ، أو نزلت بهم النوازل من أي نوع كانت هذه النوازل ، فتقدم رجال أماجد واووهم إلي بيوتهم وتولوا الإنفاق عليهم ، فهؤلاء القوم يكونون في ملك

يمينهم هم أصحاب القرار في شئونهم وهم أولياؤهم ومالكو ناصيتهم وهذا هو معني ملك اليمين كما يقولون .

ونحن نسأل ، أمن كرم الأخلاق هذا الذي يفعله الرجال بأصحاب الكوارث ، أم هو رق واستعباد أشد قبحا وأعظم نكرا مما كان قد شهده التاريخ ، ومارسه الناس في أزمنة ماضية ؟ دع هذا كله ودعنا معه نقبض علي زمام القلم ، ونسير مع القوم حيث يسيرون في هذا الطريق المملوء بالأشواك ، قالوا : إنه يجوز لكل شهم آوي إلي بيته من أصحاب الكوارث من أوي : أن ينكح بنات هؤلاء هو أو من يريد من أهله وذريه ، شريطة أن يكون ذلك بعقد ، ولن يعترض عليه أحد ، فهو مالك ناصية هؤلاء وله عليهم اليد ، ومن ينكر عليه أن يفعل ما يريد ؟

آلام تعتصر القلوب حين يغلق الشرع باب الرق بعد أن يضيق منافذه إلي حد كبير ، ويطلق مصارفه إلي حد التجفيف ، فيأتي هؤلاء ليفتحوا علي الإنسانية بابا من الشر قد أغلق ، ومأساة تنوء بها كواهل العباد بعد أن صرفها الله عنهم ، والشئ العجيب أنهم ينسبون ذلك إلي الله تماما كما فعل الناس في العصور الوسطي بسكان أوربا ، حين نسبوا إلي الله إلغاء الحريات الأربع فقالوا : إن الإنسان ليس بحر في حاله ، وهو ليس بحر في السياسة وهو ليس بحر في الفكر ، وهو ليس بحر في السلوك ، ثم قالوا : إن الله هو الذي صادر الحريات جميعا ، فكانت النتيجة أنه لما أطبق الظلام علي القوم ، انفلتوا من القيود وهم يعلنون غضبهم علي ربهم .

وإني لأظن ظنا غالبا أن منكري السنة حين قرأوا تاريخ القرون الوسطي ، ورأوا النتيجة التي ترتبت علي مصادرة الحريات قالوا : سنحاول أن نصادر الحريات في بعض ما نحاوله ، لعل من أهدرت حريتهم يفيقون وهم يسخطون علي الإسلام الذي بأسمه صودرت حريتهم تماما كما فعل الأوربيون في عصر النهضة بعد عصور الظلام .

وإذا كان هؤلاء القوم قد ساروا في الحج علي مبدأ تضييق الواسع وتوسيع الضيق ليخرجوا الناس من دينهم وعبادتهم ، فهم هنا في علاقة

الزوجية ، قد أطلقوا الحرية إلي حد الإباحة حيناً كما فعلوا في الخطبة (٧٦)
وقد صادروا الحرية إلي حد الرق حين تحدثوا عن ملك اليمين – فمن لـــم يمت بالسيف : مات بغيره ، – والمهم ألا يحكم الدين الإسلامي أهله .

وهم لم يتحدثوا في الزواج بعد ذلك عن شئ سوي حديثهم عن العلاقة الزوجية الخاصة في أوقات الاحتقان الشهري للزوجة .

إن الله عز وجل قد حرم هذه العلاقة ما دامت الزوجة محتقنة لأمـــور كثيرة نفسية وطبية وغيرها ، فجاء القوم ليقفوا من المنطق موقفــاً عجيبــاً ومن الدين موقفاً عدائياً ، ومن الطـــب موقـــف الاســـتنكار والاعـــتراض فيقولون : (فاعتزلوا النساء في المحيض) لم يرد بذلك تحريـــم العلاقـــة الخاصة بين الزوجين في مثل هذه الحال ، وإنما فقط هو يريد من الـــزوج أن يتجنب نقاشها ، وأن يتحمل منها حدتها ، لأنها في حالة نفسية قريبة من الاكتئاب ، وفي حالة عصبية متوترة ، هذا ما يريده الله ولا شئ غير ذلك ونحن قد فهمنا عنه كلامه ومراده فلماذا لم يفهم المسلمون ؟!

هذا كل ما في الزواج عند هؤلاء ، مع إضافة يسيرة يقولـــون فيـــها للتاريخ وسلاحهم في أيديهم – أيها التاريخ لا تنطق إلا بما نريد ، ويقولون للمؤرخين وأصابعهم ممتدة إلي عيونهم – أيها المؤرخـــون لا تســـتعملوا مناهج التاريخ وأنصتوا إلي ما نقول : إن النبي عليه السلام لم يـــتزوج إلا بأربع من النساء ، تزوج الأولي في ظروف عادية ، وتزوج الثانية والثالثة والرابعة ، إما لأنه يربي أيتامهن وخاف علي نفسه ألا يعدل (ونعتذر إلي رسول الله) بين الأيتام فتزوج بأمهم ليتحقق العدل بينهم ، أو لأنه قد آوي بعض المشردات (ونستغفر الله) ثم تبين له أن يتزوج بهن .

قلت فيما مضي إن هؤلاء قد بلغت بهم الجرأة إلي حد أنهم اعتقـــدوا أنهم يخاطبون جماعة من الموتي أو يتحدثون في فضاء ليس فيـــه رجـــع للصدي .

ولله في خلقة شئون .

المؤثرات في العلاقة الزوجية :

رأينا العلاقة الزوجية كما رسموها ، فهل هذه العلاقة الزوجية يمكـــن أن يطرأ عليها ما يؤثر فيها ؟

لا شك أن هذا عقد ، ولكل عقد مؤثرات تؤثر فيه وعوارض تعرض له تنال منه نيلاً جزئياً أو كلياً .

ومن بين هذه المؤثرات في العقد :

أ - الطلاق :

والطلاق تعبير شرعي مدلوله : أن عقد الزوجية قــد انتــهي ، وقــد وضع الشارع الحكيم صلاحيته إنهاء العقد في يد الرجـــل وحــده ، فــهو الأضبط لمشاعره ، ومن هنا فإنه هو الأقدر علي صيانة القرار من عبــث الانفعالات وتيارات الهوي والعواطف .

وهناك لفظ شرعي محدد يعتمده الشارع لفصم هذه العلاقـــة ، وهــو كلمة : (الطلاق) يستعملها الرجل في هذا الغرض .

ولا يسمح علماء الأمة بعلاقة بين رجل و امرأة تكون علاقة محرمـــة مستورة بستار شرعي ، وهناك من النفوس نفوس لا تضبط ولا تملك ، فقد يوقع الرجل الطلاق علي زوجته قاصداً فراقها ، ثم يعود فيقول : لقد كنت غاضباً فأوقعت الطلاق في غير وعي ومن غير قصد .

وفي مثل هذا الموقف يمكن العبث بساتر العقود ، فقد يبيع من لا عهد له أو يشتري أو يباشر عقداً ما من العقود المؤثرة في المال ونحوه ، ثم إذا رأي مصلحة تعود عليه قال: ما بعت وما اشتريت وما باشرت عقداً مـــن العقود ، بل كنت مغيب الوعي مسلوب الإرادة ، مضطراً فيما فعلت .

والطريق الذي يضمن السلوك المستقيم هو أن يكون لكل عقد ألفاظـــه التي يستعملها الموكلان بطرفي العقد إيجاباً وقبولاً ، سواء كان ذلــك فــي حالة إنشائه وإبرامه أو كان ذلك في حالة هدمه ونقضه في إطار ما حـــدد الشرع لذلك .

وقد يشترط العلماء لنقض عقد الزواج بالذات أن يشهد من بيده حل عقدة النكاح عليه ، إن أراد نقضه وحله .[78]

وهذا كله لا بأس به ولا غبار عليه .

ولكن ما يقوله هؤلاء الذين أنكروا السنة في حل عقدة النكاح غريب علي الساحة الإسلامية .

ذلك لأنهم يشترطون لحل عقدة النكاح شرطين :

الشرط الأول : أن يوقع الرجل علي زوجته الطلاق بلفظه الصريح أو ما يقوم مقامه من الكنايات مع توافر النية .

الشرط الثاني : أن تنقضي عدة الزوجة ثلاثة أشهر لمن كانت عدتها بالشهور أو ثلاثة قروء لمن كانت عدتها بالقرء ، أو بوضع الحمل لمن كانت عدتها بوضع الحمل .

وهؤلاء يذهبون بشكل جازم وقاطع إلي أن الرجل حين يوقع الطلاق علي زوجته يبقي هذا القول منه في مجل اللغو والعبث مدة بقاء العدة ولو قاله ألف مرة ، وذلك أنه ركن لابد أن ينضم إليه غيره ، فإذا عاد الرجل في أثناء العدة : ارتفع قوله ولا أثر لما قال ، فإن بقي علي موقفه إلي أن تنتهي العدة وقع الطلاق ، فإن أراد العودة عاد بعقد ومهر جديدين وحسبت عليه طلقه .

فإن عاد وطلقها نقول في طلاقه الثاني ما قلنا في طلاقه الأول ، فإن كملت العدة وانتهي أجلها : يفرق بينهما تفريقا نهائيا لا رجعه فيه ، ولا يجوز أن يرتبطا بعد الطلقة الثانية إلا إذا تزوجت المطلقة بزوج آخر وطلقها وتفارقا بانتهاء العدة ، يجوز لها في هذه الحال أن تعود إلي زوجها الأول ، إذ ليس للرجل إلا طلقتان بإمكانه أن يعود بعد الأولي من غير شرط ، وليس له أن يعود بعد الثانية إلا بشرط أن تنكح المرأة زوجا غيره.

وأنت كما تري أنهم يخالفون بذلك إجماع الأمة في إيقاع الطلاق وفي عدد الطلقات علي السواء ، والأمر هنا خطير جدا لانها أعراض وعلاقات تحلها كلمة وتحرمها آخرى .

وأدلتهم علي ذلك أمور عاطفية و حماسة شبـــاب ، فـــهم حيـــن يريدون أن يطلقوا للعلاقة بين الرجل والمرأة العنان تجدهم يقولـــــون : إن المسلمين يتشددون في أحكامهم باعتماد لفظ الطلاق من الرجل ، وهم بذلك يهدمون أسرا ويشردون أطفالا وغير ذلك من الأساليب الخطابية الحماسية ، فإن أرادوا أن يضيقوا علي الناس ويحرموا علي الزوجة أن تعود إلــــي زوجها بعد الطلقة الثانية مخالفين بذلك المفهوم من النص يقولـــون : هـــذا تشريع الله وهذه هي تفصيلات القرآن ، وأنتم لا تريدون أن تنصتوا إلــــي شريعة الله ولا تحبون أن تستجيبوا إلي توجيهات القرآن .

عجبا أيها الناس من هؤلاء القوم ، يتساهلون إلي حــد التفريــط فــي الأعراض مرة ، ويستندون في ذلك إلي حماسة خطابية ، ويتشددون إلــــي حد هدم البيوت علي رءوس أصحابها مرة أخرى ، ويستندون في ذلك إلى تهييج العاطفة الدينية ، وما كنا ندري قبل هذا اليوم أن الكـــلام يمكـــن أن يكون مثل الزئبق يتأثر بالحرارة والبرودة في تمدده وإنكماشه .

ب - الظهار :

والظهار أن يقول الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمي ، أي أنه قـــد حكم علي العلاقة بينه وبين الزوجة بالتحريم ، و هي أثر من آثـــار العقـــد الذي لم ينقضه بعد .

والشرع يعتبر هذا القول منه كذبا محضا ، فالعقد حين يبرم بين الزوجيـــن بالطريقة الشرعية يكون من نتيجة أن الإفضاء بين الرجل والمـــرأة مـــن الأمور التي أحلها الله ، والذي يملك أن يحلل ويحرم في مثل هذا العقد هو الله وحده ،و الرجل حين حكم علي آثار العقد الحلال بأنها محرمة يكون قد دخل في الكذب من أعلي درجاته ، ويكون قد ادعي حقا في التشريع ليـــس له .

وهذه كلها أمور لها صلة بجوانب أخلاقية ولا علاقة لـــها بـــالعقد إلا حين يكون هناك منع عن المرأة عقوبة للرجل .

وهذه المخالفة الأخلاقية وضع الله لها جزاء : عتـــق رقبـــة إن استطاع وإلا فصيام شهرين متتابعين ، إن كان قـــادرا علـــي ذلـــك ، وإلا فإطعام ستين مسكينا ، علي أن توقع العقوبة عليه من قبل أن يتماسا.

هذا هو كلام الله وهو في غاية الوضوح .

ولكن القوم لا يرضيهم إلا أن يجعلوا مثل هذه المخالفات الأخلاقية من الألفاظ الناقضة للعقود .

عجبا وألف عجب ، يتحمسون للأطفال ساعة فيريدون أن ينشئوا لهم بيتا هادئا ، ويهدمون البيت علي رءوس الجميع ساعات بغير مبرر .

ولكنها شهوة المخالفة وكفي .

جـ - الإيلاء :

في شريعة الإسلام حقوق تترتب علي عقد الزوجيـــة ومنـــها : حـــق استمتاع المرأة بالرجل ، واستمتاع الرجل بالمرأة .

والرجل بإمكانه أن يمتنع عن زوجته بإرادته مـــدة يختارهـــا ، لكـــن المرأة في مقابل ذلك لها حقوق شرعية ، فإن بلغ الرجل بتعسفه أن امتنـــع عن زوجته أربعة أشهر ، وكان مريدا لذلك قاصدا إليه فالله قد خير المرأة في أن ترفع أمرها للقاضي ليخيره بدوره أما أن يرجع عن تعسفه ، وإمـــا أن يطلق عليه زوجته .

ولست أدري ماذا يريد القوم من هذا التشريع أيضا ، ضجـــة عاليـــة أثاروها وأنا في زحمة الضجيج لم أفهم ماذا يريدون .

د - حضانة الطفل :

من شأن الطفل أن ينشأ بين أبوين يوفر له أبوه أسباب المعايش ومكانا للإيواء ، وتبثه أمه أهم مكونات شخصيته وعناصر الاتزان النفسي فيه .

فإذا ما وقع الانفصال بين الزوجين كلف الأب من جهـــة الشـــرع أن يوفر له المأوي هو وأمه ، وأن يوفر لهما أسباب المعايش إن أرادت أمـــة أن تحبس نفسها علي تربيته ، فذلك أفضل للولد في سنوات عمره الأولي .

ولكن القوم لا يريدون ذلك ، وإنما يريدون أن يضموا الوليد إلي أبيه وأن تكون الأم بالنسبة له أجيرة ، تبيعهما العواطف كما تبيعهما اللبن الذي يرضعه الطفل ويتغذي به ، ويسخرون من المسلمين فقهاء وعامة وصحابة و تابعين لأنهم درجوا علي غير ذلك وقالوا : إن الطفل يذهب إلي أمة فهي به أولي علي نحو ما قال أبو بكر لعمر ، ثم يقولون : هذا اتجاه شارع في الأمة وهو خاطئ والأب أولي بابنه يأخذه فهو مكلف أن يوفر له المأوي ثم يقولون : وإن إعطاء الابن لأبيه نوع من الضغط عليه حتى لا يجد مفرا أمامه ، وملاذا يلجأ إليه أن يراجع زوجته .

ويفتخر مولفنا بأنه صنع تجربة من هذا النوع ، وأشار علي الأم أن ترمي بوليدها إلي أبيه ، فلم يجد الأب ملجأ يلجأ إليه بولده : فعاد إلي زوجته معتذرا فانتشي صاحبنا بتجربته[1] .

أي رجوع هذا الذي يرجع فيه الزوج إلي زوجته وهو كاره وأي سكن هذا الذي سيسود العلاقة الزوجية إلا أن يكون سكنا يشبه سكن الجمر تحت التراب ، وأي مودة بل أي رحمة تلك التي ترفرف علي الحياة الزوجية التي هذه صفتها ، إلا أن تكون رحمة مصطنعه و مودة مزيفة كرحمة عبد الله بن أبي بالمسلمين وكمودته هو وأقرانه للمؤمنين .

هكذا نري هذه النظومة في جانب أخر من جوانب الحياة وهو الجانب الذي يعالج الأحوال الشخصية ، لا يخرج عن هذه السطور التي ذكرت لك وقد أطلت في تصويرها ، ولم يبق أمامنا إلا ثلاثة أشياء لتكتمل المنظومة بالكامل ، وترسم أمامك دينا خالصا يصلح لكل زمان ومكان .

أحدهما : قصص الأنبياء أو قصص القرآن ، وهذا أمر لا تحتاجه منظومتنا علي ما أظن .

وثانيها : قاعدة الحلال والحرام في المطعومات وهذه قد نحتاج إلى الحديث حولها.

---

[1] راجع البيان بالقرآن ص ٣٧١ وما بعدها .

وثالثها : نسق الأخلاق وهم سيتحدثون فيه بعموميات مقصود إليها قصدا لا تفرق دينا من
دين ، بل ولا عرفا من عرف ، وإنما تفتح جميع الأبواب بيـــن الأعـــراف كما ترفع جميع السدود بين الأديان لتجعل من ذلك كله مسخا شائها لا لون له ولا طعم ولا رائحة .

٧ – الحلال والحرام :

نحن لا نقصد بهذه الكلمة أو ضدها (الحلال والحرام) مايفهم منـــهما علي وجه الإطلاق ، لأن الكاتب يريد منهما المطعومات والمشروبات وما ورد من المحرمات من النساء .

ولم يجد الكاتب شيئا ذا بال في مجال المطعومات والمشروبات يذكره ، لأن القاعدة العامة في الإسلام هي أن جميع ما خلـــق الله علـــي الأرض يصلح أكله أو شربه هو علي أصل الإباحة إلا ما ورد الشرع بتحريمه .

وما ورد الشرع بتحريمه قسمان : أحدهما ما يكـــون حرامـــا بذاتـــه وثانيهما ما يكون حراما بوصف يلحقه .

وما حرمه الشرع قد ورد به نص صريح في القرآن الكريـــم ، كمـــا وردت به نصوص في السنة النبوية .

وأنت لا يخفي عليك أن ما ورد الشرع بتحريمه في القرآن لا يحتـــاج منا ولا من منكري السنة إلي طول وقوف ، اللهم إلا إذا كان هناك شئ من التعسف في فهم نص من النصوص ، وهذا كثيرا ما يحدث .

أما الخلاف الوارد كله فهو حول ما جاءت به السنة النبوية ، وعنـــده يحدث غموض وارتباك ، ويتعثر القوم تعثرا شديدا ، وسأضرب لك مثـــلا واحدا لترى من خلاله هذا التعثر وتدرك هذا الارتباك ، الكائنات الحية في البحر عذبا كان أو مالحا أباح القرآن الكريم أكلها ، فنحن بنص القرآن قد أحل لنا صيد البحر و طعامه .

و كائنات البحر لا تتنفس بارئتين كما تفعل كائنات البر ، وإنمـــا هي لها نظام في التنفس يخصها ، خلقها الله عليه لتلائم بيئة معيشتها ، كما خلقنا علي نظام آخر في البر يناسب بيئة معيشتنا .

وكل منا إذا غير بيئته ودخل في بيئة الآخر فقد حياته ، فالسمك يموت في البر إذا خرج من الماء ، ونحن نموت في الماء إذا دخلنا فيه ، بديهـــة من البدهيات لا تحتاج إلي شرح أو تفصيل .

ولذا قد أخبرنا النبي أن السمك حين ينفصل عن الماء بإرادة الإنســـان أو بغير إرادة منه مات ، وهو في هذه الحال حل للإنسان .

وتعال بنا ننظر كيف يصنع الراغبون في شـــهوة الخـــلاف ، إنـــهم يقولون : نحن نرد علي النبي قوله حين قال : (أحلت لنا ميتتان) فالسمك الميت ليس حلا لنا إذا خرج من الماء بإرادته أو رغما عنه ، كأن يجـــف الماء أو يحدث الإنسان بداخله تفجيرا يترتب عليه موت الأسماك .

أما إذا اصطاد الإنسان الأسماك بشباكه ، أو أخرجها بيده فإنها تكـــون حلا له .

ولسنا ندري الفرق في السمك بين الحالتين ، هل نعتبر الحالة الثانيـــة شرعية لأن السمك قد فارق الحياة بالذبح وقطع الحلقوم والمرئ و العرقين علي صفحتي العنق ، أم أننا سنعتبر أن السمك قد مات في الحالتين لأنـــه فارق بيئته التي تلائم حياته ، هذا مثال يدلك علي أن القوم يرتبكون حيـــن يريدون أن يخالفوا سنة النبي وهي إرادتهم الدائمة التي لا تنقطع .

وأنت تستطيع أن تضيف إلي ما ذكرت لك هذه الكـــلاب الضالـــة أو المستأنسة ما حكمها ؟ أعني ما حكم أكل لحومها ، إنهم يقولون إن القـــرآن الكريم لم يرد فيه نص واحد يرحم أكل الكلاب ، ولذا فإن لحـــم الكـــلاب طعام شهي لمن يريدون أكله ولا إثم عليهم فيما يفعلون .

هذا معتقدهم ونحن نشهد أن لا إلـــه إلا الله وأن محمـــدا رســـول الله ونشهد أن ما جاء به النبي حق سواء كان قرآنا يتلي أو سنة جاء بها وحيا من ربه ، فقالها قولا حفظه عنه أصحابه ، أو مارسها فعلا قلده فيه تابعوه

أو أقرها إقرارا عبر معه عن رضاه به والناس ينظرون نشهد أنه قد جاء بذلك كله من ربه شهادة نلقي الله عليها مؤمنين غـــير مفرطيـــن ولا مضيعين.

واراني الآن أعود بك علي بدء وأذكرك بسؤال طال الجـــواب عنـــه وهو: ماذا سيفعل منكرو السنة بذلك الفراغ الذي تركه استبعاد السنة علـــي مساحة التشريع ؟

والقوم قد أرادوا يملأوا هذه المساحة بواحدة مـــن ثـــلاث : أرادوا أن يملأوها بالإبراهيمية ، وأرادوا أن يملأوها بما تعارف عليه الناس وأرادوا أن يملأوها بإعادة صياغة المنظومة الإسلامية علي ما يريدون ، فانتـــهوا بعد هذا العناء كله إلي نتيجة محددة وهي أنهم قد ملأوا الفـــراغ بـــالفراغ وقبضوا في أيديهم علي الماء أو الهواء ، وشددوا القبضة ظانين أن الهواء لا يتفلت وأن الماء لا يتسرب ، وسوف يفتحون أيديهم يوما فيجدونها صفرا وسوف يقدمون علي الله يوما فلا يجدون إلا تحقيق هذا النـــص الكريـــم :

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتي إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمـــات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضـــها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور [1] .

---

[1] النور : ٣٩ ، ٤٠ .

كلمة قبل أن نفترق

وإني لأجدني الآن قد نشرت أمامك بعض الوثائق التي تتصـــل بـــهذا الموضوع الجليل وحدثتك من خلالها مقتضبا في الحديث ، وأخذت من هذه الوثائق بمقدار ما تسمح به النشرة بين يديك ومساحتها ولا شك محدودة .

ولقد كان هدفي من أول الأمر أن أطلعك علي صورة السنة وهي تلك المنارة المشعة بالضوء اللامع علي ما يثيره القوم من غبار ، آمليـــن أن يستروا بغبارهم المنعقد الحقيقة الكاملة عن أعين الناس فكـــان أن بـــددت الأضواء المنبعثه من منارة السنة هذه الظلمات التي قصد القـــوم إلـــي أن يلغوا الحقيقة بها ، فظهرت الحقيقة كاملة ناصعة البياض وتـــواري هـــدف القوم مدفوعا بالحق دون أن يخطو أحد خطوة علي الطريق الشائه الـــذي رسمه القوم إليه .

قصدت أن تكون هذه الصورة واضحة أمامك غاية الوضوح فنشـــرت بين يديك ما نشرت من وثائق القوم ، وإجتزأت لك منها مـــا شـــاء الله أن أجتزىء لك منها . وما كان قصدى أن أطوى عنك باقيها ، ولكن حملنـــي علي ذلك ما قد علمته من ضيق المساحة المتاحة ، وما أعلمه أنا عنك مما يبعث علي الثقة فيك فمثلك يكفيه المثال عن تتبع كل مقال .

وأنا أعتزم أن أطوي وثائقي وأودعك ، رأيت أن أملأ فـــراغ الوقـــت الذي يستغرقه طي الوثائق بأن أضع بين يديك ملاحظـــة لاحظتـــها فـــي مشوارى الطويل مع القوم ، والذي أستغرق إلي الآن أكثر من خمسة عشر عاما ، أعني منذ أن تتبعت القوم حين أعلنوا صرختهم في إيران ، وحيـــن وجدت صداها في الهند و باكستان ، وحين سمعت همسها من وراء البحار في توسان ، وحين رغبت أن تستشرف من بعض الأماكن الخربـــة فـــي جنبات مصر المحروسة بالإيمان .

مشوار طويل ولا شك مملوء بالتتبع والاستقصاء .

كتب للمؤلف

١ - نظرية الشخصية فى فكر الإمام الغزالى مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين.
٢ - مشكلة الألوهية بين ابن سينا والشهرستانى مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين.
٣ - مصارع المصارع مخطوطة محققة بمكتبة كلية أصول الدين.
٤ - نظرية النبوة فى الإسلام .
٥ - عقيدتنا وصلتها بالكون والحياة.
٦ - الجانب الإلهى لفكر الإمام الغزالى عرض وتحليل.
٧ - النبوة والتنبؤ قراءة جديدة فى مسائل العقيدة.
٨ - البهائية وسائل وغايات.
٩ - القاديانية ومصيرها فى التاريخ.
١٠ - العلمانية بين الحقيقة والخيال.
١١ - الإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الأول : الدفاع عن السنة.
١٢ - لإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الثانى : السنة فى مواجهة أعدائها.
١٣ - لإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الثالث : ضلالات منكرى السنة.
١٤ - اللعاب الآخير فى مجال إنكار سنة البشير النذير.
١٥ - الصراع بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى.
١٦ - الهجرة بين سنن الله الجارية وسننه الخارقة.
١٧ - مسيلمة فى مسجد توسان (الظهور الجديد وراء المحيطات).
١٨ - الأخلاق فى إطار النظرة التطورية.
١٩ - الاعتبار ببقاء الجنة والنار.
٢٠ - الحقائق الجلية فى الرد على ابن تيميه فيما أورده فى الفتوى الحموية.
٢١ - رسالة من النبى ﷺ إلى الأمة من خلال تعاملة مع خيانات اليهود.
٢٢ - الفتى الذى نجا.
٢٣ - زهرة بنى زهره .
٢٤ - فى ساحة النبى ﷺ .
٢٥ - الفتوى والمفتى تحرير وتنوير.
٢٦ - المرأة والولاية.
٢٧ - الاجتهاد فى الإسلام.
٢٨ - سيدنا محمد ﷺ شخصيته وحياته.

تطلب جميع كتب المؤلف من مكتبة رشوان

داخل حرم جامعة الأزهر - بالدراسة

رقم الإيداع لدار الكتب المصرية
٥١٥٢ - لسنة ٩٨
مطبعة رشوان